شمال . . يمين . .

سمير الفيل

قصص قصيرة



الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم شرق الدلتا الثقافي

إبداعات شرق الدلتا

إهداء

إلى سمير عبد الفتاح

محمود المنسي

عصام الغازي

معصوم مرزوق

د . السيد نجم

محمود الورداني

بالتأكيد . . زحفوا الرمال في السادسة صباحاً ، مثلي .

وإلى عبد الله خيرت

د . عبد القادر القط

د . ألفت الروبي

شمس الدين موسى

سيد عبد الخالق

مجدي الجابري

مجدي حسنين

أسامة الدناصوري

رحلوا قبل أن يقرأوا هذه الحكايات ،

سمير الفيل

" لا يوجد في أرض الله الواسعة شعب أسلس طبعاً من أبناء الفراعنة هؤلاء .

فالمصري يحتفظ بدماثة طبعه تحت ثيابه العسكرية ، وتظهر حضارته المتأصلة إذا ما قورن بالعسكري العثماني ، ذلك الجلف الجافي ، الذي يفاجئك هو وضباطه بفظاظتهم ، على حين أن المصري يحتفظ ، مجنداً ، بهدوء سريرته ، وكرم طبعه ، وسماحة سجاياه "

شارل ديديه – ليالي القاهرة
ط – باريس – ١٨٦٠ م

[مصدر : سندباد المصري / حسين فوزي]

بروجي للتحية

في خريف سنة ١٩٧٤ ، استدعى فرز " الزقازيق " فتى نحيفاً كزعزوعة القصب ، أسمر ، ضعيف البنية ، بنظارة طبية لا يشوف بدونها ، إلى الخدمة العسكرية .

حلقوا له رأس الشعر نمرة واحد ، ثم صرفوا له مهمات العسكري المستجد ، بعد أن عرضوه على السرية الطبية ، فجسوه ، وقلبّوا فيه ، ورأوا أنه " صاغ سليم " .

ثم أرسلوه إلى تجنيد " الزيتون " ليتأكد الأمر ، حيث أن وجود نظارة أقلقت الرائد الأصلع ، الذي رفع الأمر عن كاهله ، وتكرر : الجس ، والتقليب ، والتذنيب !!

وجد الفتى نفسه رقماً مدقوقاً على رقعة صاج ، لا بد أن يحفظه ، انخرط في طوابير التمام والتدريب حتى أتقن كل شيء .

ولم تمض سوى أسابيع قلائل حتى وجد نفسه في كتيبة مقاتلة ، عليها حراسة الوطن ، وفوق ذلك تزحيف الرمال كل صباح بالمشمع ، مع نوبات الكينجي ، وطوابير التكدير بالملابس الداخلية .

مع أولاد ناس من بحري وقبلي ، أدرك أن الدنيا واسعة وعميقة كالمحيط ، لكنها في الوقت نفسه ضيقة كثقب إبرة . عرف أن البشر فيهم الصالح والطالح . منهم معادن نادرة

كالتبر الثمين ، ومنهم الفالصو الذي لا يساوي مليماً .

في خريف سنة ٢٠٠٣ ، انكشفت له رؤيا : أن الصول عبد الخالق يضرب بروجي ، ويستدعيه كي يحكي عن أيام الجندية الأولى .

حكايات ومواعظ لعساكر غلابة كانوا يجادلون الزمن الصعب والخدمة الإجبارية بسلامة طوية وعشق أكيد للحياة .

إلى هؤلاء الجنود الذي مضى على خدمتهم أكثر من ٢٩ سنة أهدي هذه الحكايات ، وإلى كل العساكر المستجدين . .

اضحكوا من قلوبكم على أيامنا الصعبة ، ففيها – أيضاً . . صفاء نادر ، وخشونة بكر ، وشيء من حكمة الزمن!

القســم الأول

بعض ما جرى في الأساس

قايش وسط

العسكري صبري الأرناؤطي استلم أفروله الكاكي الجديد، وفردتي البيادة، وخرج من الصف الطويل الذي أكلته الشمس، كأنه في يوم عيد. ولم لا وهو الفلاح القراري الذي ما حط على جسده إلا جلباب الصيف، وكسوة الشتاء ؟

يجعل خالته فاطمة تحيكها على ماكينة الخياطة كيفما اتفق، ثم ينقدها جزءاً من أجرها، والباقي يأتي وقت الفرج، الذي لا يزور قريتهم أبداً.

هو الآن جندي عادة، يحفظ رقمه العسكري عن ظهر قلب، وحين يصرخ فيه الشاويش " صفا " يضرب قدمه اليسرى في الأرض، كأنها بريمة يدقها كي تخرج بترولاً، والبترول هو الجاز ؛ عرف ذلك بعد أن سأل صاحبه عبد المتجلي وقت الراحة.

اليوم سيكون جندياً بحق وحقيق، وحين ينزل أجازته الشهرية، سيسير في أزقة القرية بمشية عسكرية تهز أشجار الجوافة والليمون على الجانبين.

أحلى ما في الخدمة هو ذلك الزهو الذي لا شك أنه قد شعر به وهو ينطق اسمه مضيفاً إليه الرقم الصعب الذي حفظه بمشقة، والرقم الكودي للكتيبة.

بعد ذلك يكون كل شيء سهلاً، والتكرار يعلم الشطار، وهو

شاطر ، أروب ، يعرف كيف يبدل الخطوة، بضرب مقدم القدم اليمنى في كعب اليسرى عند أقل خطأ ، ليعود لمشيته المنتظمة : واحد . . اتنين . . واحد . . اتنين .

وقد حاول فترة الاستراحة أن يكررها ، حتى أتقنها ، لكن أفروله العسكري كان قديماً ، أحضره من كشك خشبي أسفل كوبري المشاة الملاصق لمحطة السكة الحديد .

اليوم يمكنه أن يرتدي أفرولاً جديداً ، بشوكته ، وهي اللحظة التي عاش ينتظرها ، خاصة وأن الأجازة قد أوشكت على الاقتراب .

خرج من الصف مسرعاً ، وفي الخيمة المنصوبة في صحراء المعادي حيث تدريب " أساس ٢ " ، مرق إلى الداخل، كاد يدق عنقه حين اصطدمت ساقه بالوتد الحديدي اللعين ، زفر في تعب ، وهو يلهث . دخل حيث فرد مشمعه الميري بلونه البني الذي تحول مع نوبات التزحيف إلى لون التراب الأخرص .

ارتدى السترة ، راح يزررها بيد مرتجفة ، كان يخب فيها كأنها ابتلعته . سرى عن نفسه أن البنطلون سيعدل الأمور : سيعدلها ، لا شك في ذلك .

خلع البيادة بصعوبة بالغة ، كان يربطها ثمانيات وسبعات حسب الأوامر المشددة ، رفع قدمه اليمنى ، أدخل رجل البنطلون ، استند بكفه على عامود الخيمة ، فلسعته سخونته فقد كانت الظهيرة . وشمس المعادي تبخ الصهد ولا ترحم . رفع قدمه اليسرى ، وأدخل الرجل الأخرى . بكل ما أوتيَ من قوة خطف البنطلون خطفاً لأعلى ، وأدخل السترة ، وجرى إلى المرآة المهتزة بعنف على خلفية مدخل الخيمة . شعر بوسامته . عسكري بجد . ولد مجدع شارب من بز أمه . صاح فيمن حوله : إيه رأيكم ؟

كان كل من استلم مهامه في شغل شاغل عنه ، حتى أن أحداً لم يرد على سؤاله . بالكاد سمع همهمة : تمام .

لكن البنطلون انسلت ، وشعر بالخزي والكلسون فيه قطع كبير يكاد يبين لحمه .

رفع البنطلون ثانية ، وضم الحجر بما قيمته قبضتين ونصف . لا

توجد معه مهمات خياطة ، لا إبرة ولا خيط . هرش رأسه ، وأدخل رأسه في مخلته يبحث عن حبل التيل المبروم ، لقد أدخره ليوم أسود .

وها هو اليوم الأسود قد أتى مسرعاً ، وشمس المعادي لا ترحم أبداً ، قاسية مثل قلوب الصولات ، غليظة كأوامر الباشجاويشية ، وهو دائماً ما يدير في عقله العبارة الأبدية التي حُفرت في عقله كأنها موعظة لا تقدر بثمن : " الجيش بيقولك تصرف " .

أمسك بالحبل فرحاً ، وقد أدرك أنه قد عثر أخيراً على الحل الأمثل . مرر الحبل من اليمين إلى اليسار أعلى "البتلتة" شد بكل ما أوتيَ من عزم . استقر البنطلون على جسده الهزيل المضروب بالبلهارسيا في إحكام .

كان من حوله العساكر المستجدين يجّريون أفرولاتهم مثله ، لكن أغلبهم ارتدى قميصاً وبنطلوناً من قبل . شعر أنه يطوي تلك الفترة من حياته . وداعاً للجلباب الذي ربطه بالقرية والغيط والساقية .

من اليوم هو الجندي المجند صبري الأرناؤطي على سن ورمح ، وليضرب من يعترض رأسه في أقرب حائط . سيختفي من حياته ذلك الظلم الذي عاناه في أيام الفرز الأولى .

كان الأومباشى دائماً ما يختار أصحاب الجلاليب لجمع الأوراق المهملة من الساحة الواسعة . الآن هو مثلهم . فقط يختلف أختلافاً طفيفاً لا يكاد يبين بالمسحة الصفراء التي تسري تحت الجلد ولا تظهر إلا لمن يدقق .

سمع صفارة طويلة ، أدرك أن وقت الجمع في طوابير الاصطفاف قد بدأ . أدخل قدميه في البيادة بسرعة ، وأعاد ربط سبعات وثمانيات ، التي أتقنها تماماً .

وقف أول الصف شامخاً برأسه ، والطاقية الكاكية في وضعها السليم . فقط الحبل مشدود شداً يؤلمه . مر الأومباشى متفقداً الصفوف . حملق في زي صبري عبد العظيم الأرناؤطي ، صرخ فيه أن يتقدم خطوتين : أيه اللي انت عامله يا عسكري ؟ أنت جاموسة رابطينك بسلبة؟

وهاج أكثر : إجري بسرعة هات قايش الوسط .

اختلط الأمر على صبري ، هز رأسه بعدم فهم حقيقي ، خرجت

الكلمات بصعوبة : قايش . . أيه ؟

رد الأومباشي : قايش الوسط . ولا تكونش فاكر صارفينه لك علشان تتحزم به ، وترقص ؟

ضج الطابور بالضحك ، وهو ما لم يكن مسموحاً به . وقد أمر الأومباشي بإحضار كل عسكري للمخلة ، ورفعها لأعلى والجري بها في عز نقحة الشمس على شرف العسكري صبري الذي لا يعرف قايش الوسط .

واستسلم العساكر للأوامر ، وبدأ طابور الذنب والشمس كانت ما تزال تشوي الأجساد ، وتؤكد لصبري أن ربه لم يرض عنه بعد ، ربما لذنب قديم ، فعله ونساه .

يــوم الـرقـص

العسكري فريد الأهبل فعلها . ظل يخزن في صدره كالجمل، ثم نط في بطن الأومباشى عويضة ، لوى زراعه ، أوقعه أرضاً ، وذلك لأنه ظل يسخر منه على مدار أسبوع كامل، منادياً إياه : يا عسكري يا نمرة !

والعسكري النمرة جثم على صدر عويضة ، ولكمه في صدغيه لكمات متوالية ، وغشي الموقع سكينة ، وصمت لم نعتده . وسرعان ما تخلص الأومباشي من وقع المفاجأة ، وبادل فريد الضرب ، وتأكدنا أنه — أي الأهبل — يترك له مساحة مناسبة للّطم وانشاب الأظافر في رقبته حتى صارت خطوطاً حمراء متعرجة ، فلما تيقن أن العلامات الحمراء لن تُمحى بسهولة عاود لكماته ، ثم فر واقفاً ، وركله وهو يصيح : ابن كلب .

بتثاقل قام الأومباشى ونفض ملابسه ، وراح يعدل من وضع أفروله ، وسرعان ما رأينا سرسوب الدم يتسلل من أنفه تجاه الشفتين .

أسرع عسكري سمين بقذف منديله الكاكي ، تلقفه ، ومسح الدم الأحمر القاني ، نظر بكل غل : سأريك .

تحلقنا حول المتخاصمين المتضاربين ، وقلنا إن الصلح خير ، وعفى الله عما سلف .

أشار الأومباشى بحسم : كل هؤلاء سيشهدون .

قلنا جميعاً : لم نر شيئاً .

وقال لطفي فرو بخبث شديد : سأشهد بما رأيت . أنت بدأت بضربه .

ضرب الأومباشي عويضة صدره بيده : أنا ؟!

نظر إليه لطفي فرو ، وضيق ما بين عينيه ، وهو القصير المكير ، وصاحب عاهة ، وكل ذي عاهة جبار ، أما في الجيش فكل ذي عاهة أمير الجبابرة . لذلك كان يسيراً عليه أن يتجه لسترة العسكري فريد ، ويمزقها أمامنا ، فتتطاير الأزرار . هنا هتف بصوت عالي : تمزق ملا بسه ، وتضربه ، وتريد منه السكوت .

قلنا جميعاً في تشف – ونحن الذين شعبنا سخرية من هذا الأومباشي اللعين – وقد علا صوتنا أكثر : سنشهد أنك مزقت ملابسه .

عندئذ تقدم ملاك حنا ، ومسح بيده العارية خيط الدم ، وهتف بالأومباشي : أنت زودتها وكما تدين تدان . كلنا يد واحدة . يا نمرة ١

نظر الأومباشي إلى السحب الرمادية المتكاسلة التي كانت تمر في سماء صحراء المعادي ، وكانت تضفي على المكان حزناً وغموضاً لا نهاية له ، مسح المكان : الكلاب البعيدة التي لا تكف عن النباح ، وأشجار الصبار القزمية ، وأعمدة الحديد التي تحمل الأسلاك الشائكة . قال في صوت مهزوم : سأبلغ مكتباً ، وسأحبسكم جميعاً .

كاد ملاك يفتك به ، وكانت نوبة الراحة على وشك الانتهاء . زغده في جنبه : وشرف أمي أفضحك . يا أبو علقة .

ضج الموقع بالضحك ، والعسكري فريد أمسك بعامود تشين طويل وراح يرقص في دائرة هو مركزها ، وقد انفتحت السترة حتى بطنه ، وأطلت فانلته الداخلية التي طالها التمزيق وهو يغني :

" يا حلو أنت ، يا بُغاشة . .

تعالى . شوف الأومباشى "

وحنا بقبضته التي تشبه المطرقة ، يضرب على صدره المنتفخ ، وترن الطبلة البشرية ، وما لبث أن أجبر الأومباشى على الرقص معه قسراً .

في البداية ثبت قدميه في الأرض الرملية ، لكنه بعد دقائق تحرك ، ووجهه المتقع تعلوه غبرة . الجميع يرد على فريد الأهبل " يا باشا " إلاه .

وعلى صوت الطبل والدق ، والتصفيق المتواصل جاء أفراد من فصائل أخرى ، كان أغلبهم في غُلب لا يوصف بسبب مفارقة الأهل

والخلان ، فدخلوا الدائرة ، ورقصوا . لم ير أحد من هؤلاء العساكر بداية اللطم والضرب ، وخيط الدم . فقط انخرطوا في الرقص والغناء .

واتسعت الدائرة ، حتى أصحاب الرزانة والوقار شاركوا في التوقيع بأكفهم الغليظة . بشق الأنفس عثر العسكري يحيى على قطعة حرير حمراء ، لعلها في الأصل إيشارب لبنت يحبها ، وحزم الأومباشى الذي لم يجد مفراً من الاستسلام لغواية الرقص ، وتغيرت النغمة ، بإيقاع محموم .

" يا حلو أنت ، يا بُغاشة . .

تعالى ، بوس الأومباشى "

وتحول الوجه المتقع إلى صفاء مدهش ، والأومباشى يرقص هذه المرة بجد ، ورمضان يراقصه في ثنائية لا توصف من الانسجام والمودة .

في تلك الأثناء دخل العسكري لطفي فرو ، وأحضر سترة جديدة ، ألبسها رمضان بصعوبة وهو يرقص ، بعد أن انتزع سترته الممزقة .

وعلى حين غرة ، دوت صفارة الجمع ، وتوقف العساكر عن الرقص لهنيهة ، ثم استعدوا للانسحاب بهدوء . غير أن ملاك حنا المفتري ، صاحب القبضة مثل المطرقة صرخ فينا : ساعة الحظ لا تعوض . هيا نكمل .

واستمر الرقص ساخناً ، وكانت البيادات تدبدب في انتظام غريب . لم نشعر بالرائد سلامة عسل إلا وهو فوق رؤوسنا يشخط فينا بصوت هادر : كله حبس خميس وجمعة . . يا نمر !!

قالها وذهب ، ولم يتوقف الرقص ، والوحيد الذي خُصم من راتبه يومان كان الأومباشى عويضة . وقد جمعنا له من نقودنا القليلة ضعف ما خُصم . فرد المبلغ بحسم ، وقال لنا بعد الواقعة بأسبوعين : لقد كسبت أكثر . ولم نفهم !!

الظـــل

كل شيء في الدنيا له ظل . وللظل تحولات لا تخطئ العين رؤيتها .
الظل ملازم للأجساد ، المباني ، الأشجار ، الحيوانات الأليفة والنافرة . .

لا بد من وجود شمس كي يتكون الظل ، ربما قال قائل : إن التيار الكهربائي حين يسري في أسلاك المصابيح يتولد الضوء ، ويوجد الظل . هذا ما نعرفه ، لكننا نتحدث عن الظل الأصلي ، الطبيعي ، الذي يتولد من النور الرباني ، سواء مع بزوغ شمس ، أو إطلالة قمر .

كل هذه الأشياء يعرفها عساكر الأساس ،وهم ينزوون في الأركان ، تحت ظلال الجدران البعيدة للكانتين ، أو ظلال الخيام حيث يمتنع بتاتاً على الأفراد دخول حرم الخيام إلا في أوقات الراحة ، أما فترة الطوابير الممتدة من السادسة صباحاً ، وحتى الثانية ظهراً ، فمن المستحيل الدخول إلا للمرضى ومن يحملون " أرانيك " عيادة ، وفيها عبارة صرحة بالقلم الأحمر " معافاة من الخدمة والطوابير " ، وهو أمر نادر الحدوث .

فحتى هؤلاء يتم مطاردتهم ، وأسرهم بكل معنى الكلمة ، حيث يؤخذون إلى المطبخ الميري لتقشير البطاطس ، وتقطيع البصل ، وعصر الطماطم ، وحمل " الأروانات " العملاقة ، وهي مسائل مهلكة للبدن والأعصاب .

الظل هو غاية كل مجند ، خاصة في أشهر الصيف العنيدة ، بالتحديد يونيو ، ويوليو ، وأغسطس . وهو الثلاثي الذي يكرهه كل عسكري من قلبه . فالشمس في صحراء المعادي تهبط لتلامس بشظاياها

رؤوس الأفراد . وحتى الكلاب في عز الصهد تختفي ولا تظهر إلا في وقت معلوم- بين الثانية والنصف والثالثة ظهراً- حيث يقترب موعد توزيع التعيين . فتظفر بقطع عظام ، وبقايا جراية ، وقليل من اليمك ، إن كانت هناك وشائج صداقة قوية بينها وبين فرد في عقله خلل، بحيث يتنازل عن جزء من نصيبه ، وقوته الضروري لكلب ضال ، في الغالب أجرب ، هزيل ، ضامر الجرم ، وهذا ما كان من الأمر العسكري " توفيق أبو شعرة " .

الظل يخشى افتضاح أمره ، ففي الثانية عشر تماماً يقصر ويتلاشى فلا تعثر على أثر له ، قبل أن يعود ، فيمتد باتجاه ثكنات القائد ، والضباط .

هؤلاء لا يشغلهم الظل في شيء ، فلديهم أسلاك ممدودة ، تتصل بمراوح بعضها معلق في الأسقف ، وبعضها على حامل .

وأنت إن أحببت أن تجد ظلاً مناسباً فعليك بالدفع ، حيث يسمح لك عسكري الكانتين أن تجلس إلى جوار الجدار الخشبي السميك مقابل سيجارة أو سيجارتين ، وفي أوقات القحط الرهيب يكتفي بنفسين ودعوة مفادها العودة سالماً غانماً لأهلك .

وفي الظل إغواء للجسد بالراحة ، وتخليص للروح المتعبة من أوجاعها ، ونحن هنا نتحدث عن شمس الصيف تحديداً ، وهو الموعد المناسب دائماً لتجنيد دفعات جديدة من العادة والمؤهلات على السواء .

وبقدر تنازلك عن جزء من الظل يخصك يكون مقدار أصالتك ومتانة صداقتك لأي زميل ، وحين اكتشفنا بعد أسبوع كامل من البحث المضني عن ظل شجرة كافور وحيدة هائلة تقع في الركن الأيسر لمطبخ المعسكر ، رحنا نتسلل إليها ونحتلها ، دون أن نجسر لحظة على البوح بسرنا الدفين .

فإذا سألنا زميل – نحن المكتشفين لظل الكافورة الوارف ، البهيج – نتعلل بالذهاب إلى "الأدبخانة" أو " السرية الصحية " ولذلك بقي السر فترة طويلة حتى تم اكتشافه من الجميع ، وحدثت الجلبة أثر الازدحام ، وعلق القائد لافتة عليها بخط أسود عريض " ممنوع الجلوس " .

الظل قرين الهدوء ، هو في الأصل نقيض النور ، لكنه لا يدحضه ، أنه يشاركه المكان ، ولا يسعى لإزاحته ، يتداولان – عبر الزمان القصير – الكر والفر ، إلى أن يدخل الليل فيختفي هذا وذاك : الظل والنور .

واليوم حدث في الطابور ما عكر صفونا جميعاً ، إذ أن العسكري صبري الأرناؤطي تخابث أثناء توزيع تعيين الفصيلة الثالثة ، وأخفى في كيس من البلاستيك قطعتين من اللحم ، ولما تم التوزيع على الأروانات الفردية ، اكتشفنا العجز ، وراح صبري يقسم أن العجز على مستوى المعسكر كله . بينما هو يوالي قسمه المغلظ ، برز طرف الكيس من عبه ، فامتدت يد ملاك حنا الغليظة إلى صدر العسكري ، وسحب الكيس ، وبكى صبري ، رضخ لأي جزاء نوقعه عليه إلا أن نبلغ الأومباشى عويضة ، أو الصول عبد الخالق ، فقد كان يخشاهما كثيراً .

قال ملاك بغضب : هل ترضى بحكمي ؟

رد على الفور ، وكأنه غريق قد تعلق بقشة : أرضى . .

فاقترب منه ملاك ودعك أذنيه حتى احمرتا ، وكاد الدم ينبثق منهما .

قال لنا في خشونة نعرفها : غذاء هذا العسكري اليوم جراية حاف .

وافقناه ، لكنه أضاف في خبث ، وقد وقع صبري في يد من لا يرحم : بعد الغذاء سألقنه درساً لن ينساه .

جلسنا في دائرة صغيرة ، نهجم بشهية على طعام الغذاء ، كان الطبخة السوداء – أي الباذنجان الرومي – وقطعة صغيرة من اللحم بعد أن حرمنا العسكري صبري من نصيبه . وقد أحس بالذنب ، فأقعى يقرقض طرف الرغيف بأسنانه ولم يهن علينا أن نتركه على هذه الحال ، فقد تغاضانا عن خطأه ، ومد سراج يده بقطعة لحم ، وحفنة يمك .

وبعد أن انتهينا ، مرت علينا قطة ، رأيناها تعدو في الساحة الخالية . هنا التفت ملاك حنا إلى العسكري صبري المغضوب عليه ، وأمره بإحضار ظل القطة ، وإلا سيشي بفعلته .

وهنا انطلق صبري كطلقة رصاص نحو الهدف ، وراح يعدو مطارداً ظل القطة ، وكلما مرقت من بين يديه ، أعاد المحاولة ، وكان يقبض على الظل المراوغ ، ويكاد ينشب أظافره في الأرض قابضاً عليه دون جدوى .

ولما عاد إلينا خائباً ، خالي الوفاض ، منكسراً ، معترفاً بالذنب صرخ فيه ملاك : أين ظل القطة ؟

علا صدر العسكري صبري وهبط ، كانت أنفاسه متقطعة : مقدرتش أمسك الظل . . يا أفندم .

خبطه ملاك حنا في ود ، ووسع له إلى جواره ، وجعله يقسم على المصحف – وكان باستمرار في جيب سترة سراج الأيمن – ألا يفعلها ثانية ، وقد أوفى الرجل بوعده طيلة فترة الأساس .

التـزحيــف

نحـن في الأسـاس . والأسـاس ٤٥ يومـاً ، لا تزيـد ولا تـنقص . تـستلم مهماتك ، تحمـل المخلة ، تتحـول مـن فـرد مـدني عـادي ، إلى عـسكري لا يتحرك إلا بالأوامر .

والجيش متاهـة . الـداخل فيهـا مفقـود ، والخـارج مولـود . مـن كـل جنس ولون ، وهيئة وشكل ستجد البشر : حانقين ، سـعداء ، ممـرورين ، لاهين ، عدميين ، متفائلين . من النقيض إلى النقيض . لكن الزمن ممتلئ بأمثال هؤلاء وهؤلاء . كل شيء كان يتوقعه خليفة مرسي الشموطي إلا موضوع التزحيف.

لقد بحث له عن سبب أو علة دون أي فائدة . فما الدافع الذي يجعل عساكر الأسـاس يقومـون مـن النجمـة ، وقبـل شـروق الـشمس ، ليغسلوا وجوههم بما تيسر من ماء الجراكن ، قبل أن يخرجوا مشمعاتهم المتينة ، بلونها البني الغامق ، وتيلها المنسوج راقات ، يثبتون الطرف بقطع الزلط والحجارة ، ثم يمسكون الطرف الآخر ، ويمضون لتسوية أرض الميدان الواسع الذي لا نهاية له .من مـربط خيـام الأفـراد ، وحتى السور البعيد البعيد الذي تعرفه الكلاب ، فلا تتجاوزه إلا بنباحها الواهن .

هناك عدة طرق للتزحيف ، أبسطها أن يُحدد لكل فرد مقطوعية يسويها بمعرفته ، ويتحمل خطأ وجود أي مساحة فيها نتوءات أو تعريجات . هذا هو الشائع والمعمول به في أساس٢، ٤.

لكن هناك معسكرات تدريب أخرى تأخذ بنظرية " الجشتالت " فتقوم كل سرية بالتزحيف الجماعي ، فكأنك في حضرة رتل من سيارات الميدان تمضي في ذات الاتجاه ، وبنفس السرعة ، دون أن تترك بوصة فراغ واحدة .

كل شيء مقبول ، ومعقول ، ومحسوب في ذهن خليفة إلا هذا الأمر ، وهو يسأل كل من يقابله في صوت هامس خشية التبليغ عنه من أي واحد ابن حرام : أريد أن أعرف ضرورة التزحيف ؟

ظل يسأل ، ولا أحد منا يجاوبه ، ويضع له العقل في رأسه فليس من المعقول أن نسأل في كل كبيرة وصغيرة . هناك في العسكرية تكتيكات واستراتيجيات ، وما نحن إلا عساكر بلا ظهر أو سند . بل الغريب أن يصدر مثل هذا السؤال عن خليفة بالذات ، وأبوه كما علمنا منه يُصلح الأحذية عند أبواب جامع السيد البدوي . يضع السندان على الأرض ويبدأ عمله قبل الظهيرة كل يوم وحتى يشطب آخر فردتين ، وكله برزقه .

مرسي الأب – والله أعلم – عوّد ابنه على ال[illegible]س على الحديث ، والسؤال عن كل أمر ، من طقطق إلى السلام عليكم .

ربما كان لحوحاً في مسألة التزحيف ، أما أن يحولها إلى قضية عمره ، فهذا معناه أن دماغه " جزمة " قديمة .

وهذا ما حدث له من جراء اللت والعجن في موضوع مفروغ منه . فقد حوله الأومباشى إلى الصول ، لما سأله الصول عن السبب . أشار الخبيث إلى العسكري المستجد الذي لم يكن له خبرة بأمور الدهاء : أسأل عن التزحيف . لماذا نقوم به ؟

والصول عرفة أبو غزالة الداهية وجدها فرصة للتنكيل بنا جميعاً ، بأن يوقع الأذية بهذا الأبله ابن " الصرماتي " .

والمثل قال : " اضرب المربوط ، يخاف السايب " . ولكن للأسف كلنا مربوطون من أعناقنا منذ اليوم الذي دخلنا فيه منطقة الفرز ، وجردونا من الثياب إلا ما يستر العورة ، وبحثوا عن الفتق والبواسير والسل و . . . .

عندما انتهوا ، وختموا الورق بالكودي الأسود بكلمة " صاغ "
صرنا لا نسأل ، ولا نجرؤ على رفع الحنجرة بصوت حتى لو كان واهناً .

الضابط أنور – وهو ضابط مخلة ، لا قلب له – ربت على كتف العسكري الغلبان ، وسهاه في الكلام : خير يا دفعة ؟ ، ابتسم الغر ، وبانت نواجذه : فقط ، أسأل عن التزحيف . هل كل جيوش العالم تزحف مثلنا؟

الضابط أنور ، تركه ، وراح يقلب السكر في قعر كوب الشاي ، وعاد إلى مكتبه في وسط الخيمة ، وقد أدرك أن الفأر قد وقع في المصيدة . شجعه على الكلام أكثر ، فأضاف ابن مرسي الشموطي : التزحيف تضييع وقت . أريد أن يصل صوتي للقيادة .

لسان حال الضابط : اللهم طولك يا روح .

لكنه يطلب المزيد من الكلام السائب ، ربت على كتفه بتشجيع ماكر :

قل كل ما عندك . . يا عسكري .

وضع الكوب على حافة المكتب – وهو منضدة ملخلعة قوائمها ، أما سطحها فمن خشب جميز مسوس – وسوى أطراف شاربه ، وأمر بطابور ذنب ٨ ، ٩ .

وقبل أن ينصرف ، وخزه في صدره : ها . . أتريد أن تعدل الكون . . يا روح أمك !

ربما فكر في صفعه ، لكنه تراجع ، وقرر حرمانه من الإجازة الشهرية ، وخدمتين " كينجي " زيادة .

وحين رجع العسكري خليفة ، بان عليه الإرهاق بعد دورانه في ساحة التدريب حاملاً المخلاة ، والعرق يشر منه ، وهو يلهث وصوته يطلع بصعوبة : لن يقنعني أحد بأن التزحيف ضروري ، حتى لو قصفوا عمري .

وفي الخيط الأول من فجر اليوم التالي ، كنا نزّحف رمال الموقع بهمة أقل ، وكان العسكري خليفة يشاركنا الأمر متعباً ، موجوع القلب ، فقد قضى نوبة الكينجي وهو يكلم نفسه : التزحيف خطأ .

كان أغلبنا يرى الأمر نفسه ، ولم يكن أحدنا على استعداد لذلك

العقاب الصارم ، فالجيش له عبرة حفظناها مراراً وتكراراً : " نفذ الأمر ولو خطأ " .

ولقد رأينا مصير من جرؤ على مناقشة الأمر ، فما بالك لو رفضه .

استمر التزحيف ، وحين سوينا الأرض ومهدناها ، هبت عاصفة صغيرة ، فمسحت كل ما فعلناه . ضحك العسكري خليفة وهو يشير إلينا بيده : زحف يا عسكري ولو خطأ . .

كانت ضحكته منقوعة بمرارة وحزن بلا حدود .

ياقات حمراء

عرفنا أنه ابن ناس من أول وهلة . بنظراته الواثقة، ووجهه الخمري المستدير الذي لم تلوحه شمس بعد ،وبتلك الابتسامة العريضة التي استقبل بها خبر توزيعه على سلاح المشاة.

كنا على ثقة أنه لا يكذب علينا – في نوبات الراحة – حين يحدثنا عن أعمام له ، وأخوال يحملون رتبة اللواء أو العميد، ويمكنهم بإشارة إصبع أن يوزعوه على أسلحة الخدمات التي لا مشقة فيها ولا تعب .

تأكدنا أن سراج مصطفى ، والذي سيصبح في الأيام التالية محامي المعسكر له مخ مختلف . لقد أراد أن يخدم بجد، ورغم بكاء الأم ، وتوسلات الأب بالتوسط له عند أصحاب الأمر والنهي كي يتم توزيعه في وحدة مناسبة إلا أنه رفض رفضاً تاماً .

وها هو بيننا ، واحد منا وعلينا ، يضع يده في جيب سترته فتبرز علبة سجائر " الكنت " ، يعزم علينا عزومة مراكبية ، ويشعل سيجارته بكل ترفع وكبرياء .

وسراج مصطفى القرانفلي ، ابن الناس ، أخذ في أول يوم خدمة درساً لن ينساه ، عندما سأله الأومباشي عويضة عن مؤهله ، فرد بثقة بانت في نبرات صوته : ليسانس حقوق . . يا أفندم .

لحظتها ارتبك الأومباشي ، لعلها ثوان قليلة ، وانطلق كالمدفع " المتريوز " مهاجماً العسكري المستجد : عليك أن تدفن شهادتك هذه في أقرب حفرة . وانس الليسانس ، وإلا ستتعب .

وجعله يتحرك خطوة للأمام ، ويقلع طاقية الرأس ، ويختبر صلابته

بأن ضربه في كتفه ضربتين قويتين ، وسأله على الفور : بماذا شعرت ؟ ، على الفور رد المحامي سراج : لا شيء يا أفندم .

وقبل أن يكمل جملته جاءته اللكمة في بطنه مفاجئة ، قوية ، ولقد حاول العسكري المستجد امتصاص الصدمة ، لكن تقلصات الوجه فضحت ألمه الذي أخفاه في حشرجة مكتومة .

أمره بالرجوع للصف ، واستمر طابور التدريب الأولي : صفا . . انتباه . . الخطوة المعتادة ، للخلف در ، استرح . والشمس تصب حممها ، اقترب أومباشى آخر لم نكن نعرف اسمه ، لكن قسمات وجهه ، وطريقته في الحديث دلت على أنه متطوع ، استلم الطابور بعد راحة خمس دقائق ، وهمس الأومباشى عويضة في أذنه . وهو – بدوره – لم يكذب خبراً فجأر صوته في الخلاء : سريعاً جري ، مع الوثب لأعلى .

وانطلقنا في جري دائري حول وتد خشبي تم دقه في ساحة التدريب ، والكل يلهث ، وينساب العرق خيوطاً ، تنحدر تجاه العينين ، فتتألم من الملوحة ، ونهمهم : كفى . . يا أفندم .

والأومباشى المتطوع لا يكفيه إلا أن نطب ساكتين ، وقد صعّب الأمر علينا بأن جعلنا نصعد التبة الصناعية ونهبط مرات ومرات ، وعساكر منا تتساقط ، وهو يجذبها بعنف ، ويدفعها للطابور من جديد ، حتى تقطعت أنفاسنا ، وامتقعت وجوهنا .

نظرت للعسكري سراج ، كان يغالب ألمه ، والعرق يصنع دائرتين واسعتين تحت الإبطين . وجاء الأمر صارماً كالسيف : قف . . لليمين حذا . .

لحظات التقاط الأنفاس . انتظرنا الأمر استرح لنمسح بالمناديل الكاكية عرقنا دون جدوى . خبط الأومباشى المتطوع سراجاً في كتفه : ما هذا البلل ؟

لم يرد المحامي المنخرط في الخدمة حديثاً ، فالسكوت في الجيش من ذهب .

ونظر إلى البنطلون الواسع الفضفاض ، كانت هناك خيوط لا تكاد تبين من عرق : هل عملتها على نفسك ي عسكري ؟

تقدم سراج خطوة للأمام ، ونطق بقوة : أنا متظلم . . ما يجري هنا ضد أبسط حقوق الإنسان .

شخر الأومباشي ونخر ، وأطلقها كالقذيفة : نعم ، يا روح أمك .

ثم بدأ الأمر بالزحف الثعباني ، والأرض قطع من حصى ، لها سخونة لا تطاق . ولم يجد سراج مصطفى القرانفلي مفراً من تنفيذ الأوامر بكل دقة .

وبعد انتهاء طابور الزحف ، سأله الأومباشي المتطوع : ما شعورك الآن ؟

تأمله العسكري من قدميه إلى أعلى الرأس بنظرة كلها غل وأسى ممتزجين : شعوري أنك جاهل!!

ضج الموقع كله بالضحك ، حتى أن بعضنا ضرب كفاً بكف ، فقد كانت ملاحظته صائبة ، وعرفنا فيما بعد أن الأومباشي الذي يكدر سراج ، ما هو إلا راسب إعدادية .

توقف الهرج والمرج حين جاء الأومباشي عويضة واستلم الطابور ، وشكر الأومباشي المتطوع : شكراً يا أومباشي فؤاد.

كان الأومباشي فؤاد المنصوري – وهذا اسمه الذي عرفناه فيما بعد – يمضي نحو " الكانتين " ساحباً خجله خلفه، وكانت الهمهمات المكتومة تعلو ، وتنخفض طيلة الربع ساعة المتبقية من طابور التدريب .

وقت الراحة تحلقنا في مرح صاخب حول العسكري سراج ، المحامي الذي يتحدث عن حقوق الإنسان . غمز لطفي فرو بعينه الحولاء ، وهو يسأله : أتدافع عن نفسك أم عنا ؟

بنبرات صادقة ، لا اصطناع فيها : أنا مثلكم .

خبطه توفيق مصيلحي الأهبل في كتفه بمودة : أصيل يا ولد . اعطني سيجارة " كنت " .

في لحظة لم تبق في العلبة إلا ورقة السلوفان المفضضة ، فطوى العلبة ، فركها في يده ، اتجه نحوي : الجيش هذا . فيه من الحياة كثير . لا يمكنك تفصل بين النبيل الرفيع ، وبين الدنيء الوضيع . فيه معاناة وتعب ، لكن له قانونه . عليك أن تفهمه . ستخسر كثيراً إن فرضت عليه

شروطك .

شردنا جميعاً ،وصاح فيه العسكري صبري الأرناؤوطي: أهي مرافعة يا أستاذ ؟

عاد الضحك من القلب ، وعمنا صفاء نقي ، غسل أرواحنا المجهدة

بعد أسبوع واحد ، زارت الكتيبة سيارة جيب ، ارتج لها المعسكر كله ، ونزل منها ضباط كبار ، بشارات أركان حرب الحمراء المثلثة على طرفي الياقة ، ودوىّ صوت البروجي ، وتم جمعنا في غير وقت طوابير التدريب . واهتم الصولات بالزي، ونظافة الخيام ، ورفع علم جديد على سارية ساحة التدريب الأساسية .

وجاء الضابط أنور عدواً ، وهو يسأل : أين الباشا سراج مصطفى ؟ ضحكنا جميعاً للفظ " الباشا " . تقدم من العسكري ، وهو يسأله في ود كذوب لا يخفى على عاقل : مبسوط يا سراج ؟

هز العسكري سراج رأسه ، فلم يعرف الإجابة بالضبط . إلا أنه أخذه من الصف ، وهمس في أذن الأومباشي عويضة : يبدو أننا ستأخذنا داهية .

وفي خيمة القائد ، جلس سراج مصطفى مع أقاربه ، قدموا له لفائف طعام وحلوى ، وقروصة سجائر " كنت " ، وسأله قريب له عن الحال ، فرد على الفور : هي تجربة .

نظر إليه عمه اللواء ، وهو يختبر عناده : أننقلك إلى السرية الطبية لتكون قريباً منا ؟

تجهم العسكري مصطفى ، ونسي الرتبة التي يتحدث معها : قلت أنني مستريح هنا .

تنفس القائد في راحة ، وجاءت زجاجات المياه الغازية ، ودارت على الرتب ذات الياقات الحمراء . والغريب أن العسكري سراج ظل واقفاً كالألف عند باب الخيمة التي تدور المروحة في سقفها ، والتي يشغل الركن الأيسر جهاز تليفزيون . حتى أنه رفض زجاجة المياه الغازية .

وحين أوشكت الزيارة على الانتهاء ، قال خاله المقدم : أنت تعرف

تليفون كل منا ، حدثنا عند أي مشكلة .

قـال لهـم ، وهـو يستدير عائـداً إلى الطـابور : لا مـشاكل لـديّ . . المشكلة عندكم في الجيش نفسه .

وقـد ركبـوا سيارة الجيب الأنيقـة ، وهـم يتـابعون سيره إلى الجمـع المصطف ، ولم يدهشهم حديثه ، فقـد كـانوا يعرفـون أنـه متمـرد بطبعـه . لكن لديهم إحساس لا يخيب في أنـه سـيعرف الكـثير مـن أمـور الحيـاة في هذا المكان الموحش ، المنقوع في الخلاء .

أربعة شرائط سوداء

كل عسكري مستجد ، عليه أن يعتبر نفسه قد سقط من قعر القفة . وواجب عليه أن يخشى صف الضباط والصولات ممن وهبوا زهرة شبابهم للجيش ، حتى شاب شعر رؤوسهم ، ووهن العظم منهم ، رغم أن أغلبهم لم يتجاوز خط الأربعين باستثناء خلاف خلف ، والصول عبد الخالق ، والأومباشى عويضة .

كان الأخير قد حصل على أربعة شرائط ، وفعل فعلة نكراء ، فخفضوا رتبته ، واقتصوا منه شريطين ، ويقال أنه ظل يبكي هذين الشريطين أياماً وليالي حتى صارت الدموع دماً ، وفي هذه مبالغة لا نرضاها .

ما علينا . تعالوا معنا لخلاف ، وصلوا على النبي ، فحكايته حكاية . إنه راضع الميري من " بز أمه " ، فلا ضحكة ولا ظل ابتسامة . فقط تجهم وعبوس لا حد له .

سواء في الطوابير أو ساعة المرور على الخدمة ، يقف كالوتد المدقوق في الأرض عندما يتحدث إلى أي ضابط ، وتراه حريصاً على قص شاربه ، وحلاقة ذقنه مرتين يومياً ، أما الشرائط التي تحتل حيزاً كبيراً على كتفه ، فكل فتلة منها لها ثمنها . وهو صعيدي قح ، بلهجة قاهرية ، فالأهل قد استوطنوا الشرابية منذ أربعة أجيال .

لكنه منقوع في صهد " جرجا " بالوراثة . فإذا كان الصول عبد الخالق حريص على الضبط والربط ، وذل الجنود في صحوهم ومنامهم ، فإن خلاف يزيد على ذلك بأمرين ، الأول كرهه الشديد لأي مجند يحمل مؤهلاً عالياً ، حيث يحاول تصيد خطأ من هنا أو من هناك ليمسح

بكرامته الأرض .

الثاني حبه الشديد للصعايدة ، أصحاب البشرة السمراء ، فلهم وحدهم المعافاة من لم الورق ، وانتزاع الحصى في عز نقرة الشمس ، وهذه وسيلة لتتحول بشرتهم الفاتحة إلى سمراء ، كي تسري في دمهم النخوة والرجولة .

خلاف خلف متطوع ، متجهم ، عصي على الضحك ، عيبه الوحيد الذي يعترف به بينه وبين نفسه أنه كان يصلح ضابطاً ، والظروف وحدها هي التي عاكسته ودفعت به إلى درجة أدنى .

إنه لا يعترف بالوقت ، وفي تقديره أن الواحدة صباحاً ساعة مناسبة جداً ، ليجمعنا من عز نومنا ليتفحص وجوهنا في ضوء النجوم البعيدة ، ليرى هل نفضنا النوم من أعيننا أم ما زلنا مستسلمين لسلطته ؟

يقف مرتدياً زيه الميري كاملاً وكأنه ذاهب للعرض العسكري فيتلو على أسماعنا واجبات الجندي عند تعرض الموقع لخطر هجوم الأعداء .

نبلع ريقنا ، ولا أحد يجرؤ على معارضته ، وإخباره أننا في معسكر تدريب ، لا فيه هجوم ولا يحزنون .

لكن من يعلق الجرس في رقبة القط ؟ هذا السؤال حيرنا كثيراً .

وضعنا أملنا في سراج القرانفلي ، فهو ابن ناس ، وعائلته واصلة . لكنه امتنع عن التصدي لهذا الباشجاويش المغرور .

وصدق المثل الذي يقول : " يضع سره في أضعف خلقه " .

فقد فاض الكيل بالعسكري " البوطسى " ، وهو اسمه الأول ، الذي حيّرنا ، مثلما أغاظنا صمته على مدار خمسة وأربعين يوماً ، قضاها في هدوء وسكينة ، فلا يرد على أي سؤال إلا بكلمة واحدة لا غير : " أفندم " .

جمعنا خلاّف كعادته ، فقمنا نهرول ، وخلفنا بخطوتين جاء البوطسى يمسح نومه بفوطة بللها العرق . وقفنا صفوفاً ، كالأسرى الذين يستعدون للشحن في قطارات الليل .

شخط الباشجاويش فينا جميعاً ، اتهمنا بالدلع وقلة النخوة ،

باللیونة والمرقعة . أعطانا درساً في الانضباط الكامل ، والسرعة في تلبية الأوامر .

كانت أجسادنا ما زالت محتفظة بشحنة النوم ، وسخونة الأغطية ، بل إن بعضنا كان يحاول اختلاس سنة نعاس . في الوقت الذي انتهى فيه كلام خلاف ، ارتفع شخير خفيف لفرد في الطابور .

بهتنا للصوت . للحظة أو أقل ارتبك خلاف ، وسرعان ما ارتفع زئيره ليرج العساكر : من شخر منكم عليه أن يتقدم خطوة للأمام .

لم يستطع أن يبصر الفاعل في ظل هذه العتمة الموغلة في حذوها . وظلال الأعمدة في آخر المعسكر تتحرك مسرعة كلما مرت سيارة ، أو أضاءت فوانيسها للحظات .

البوطسى ، الذي لا يتكلم قطعياً ، رأيناه يتقدم . يعلو شخيره أكثر فأكثر . وإذا بيده تمتد إلى ساعد الباشجاويش فتنتزع شرائطه السوداء ، وتلقي بها إلى الساحة الواسعة .

ارتفع الظياط ، وهلل العساكر ، فأسرع خلاف إلى الساحة ليأتي بأشرطته . وعندما عاد لم يجد في المكان عسكري واحد يوحد ربه .

في صباح اليوم التالي حلقوا رأس البوطسى ، وشاربه ، وتم تكديره لثلاثة أيام متتالية . إلا أن صمته كان يشوبه همهمة غامضة . واحتلت وجهه ابتسامة لا يراها ، ولا يحسها إلا العساكر أمثالنا !

الهـــدف

كانت أسنانه تصطك ، وقلبه يرتجف ، وهو يقبض على بندقيته ، ويستعد للتقدم نحو التبة ، كي يرقد على بطنه ويستعد لإصابة الهدف .

للمرة الأولى في حياته التي يقيض له أن يضرب ناراً ، أو يسمع صوت الذخيرة الحية ، وهي تخترق الشاخص ، وتصطدم بقطعة المعدن الصغيرة بالحائل الصخري العنيد .

يسمع كثيراً عن حوادث الثأر بالصعيد ، لكنه من بحري ، وقد شرب مهنة الأب ، التي أخذها عن سابع جد ، ويده تلك التي تحفر زهوراً في الخشب الزان والسويدي تُلف في حرير .

، هو الآن يستعد لتلك اللحظة الفارقة في حياته ، وعليه أن يفعل المستحيل كي يكتم أنفاسه ، ويضبط زاوية التنشين حتى لا تطيش طلقاته .

ليس عليه أن يفكر في الورشة ، ولا في عدة الشغل التي تركها في البنك ، ولا في صورة "سعاد حسني" التي تضحك لزهور النرجس من حولها ، وتغني بصوت كله مرح "الدنيا ربيع"

الرمل الأصفر يحاصره ، بلونه الأخرس ، وخشونته ، والشمس تسقط وراء ظهرها ، فتثير حنقه .

ركب السيارة إلى التبة منذ الصباح الباكر ، وراحت العجلات

تهـب الطريـق ، ومفاصـل المقاعـد الحديديـة تتكتـك ، وترجـه رجـاً ، فيستند بمرفقه على ساق من يجاوره . غشيه حزن لا يعرف دوافعه ، وفي انحدار خيط العرق على رقبته تأكد أنه لا يحلم ، فاليوم هو ختام الكلام النظري ، والدخول بكل ثقة في معمعة الفعل .

في أفلام السينما التي يحرص على مشاهدتها صباح كل جمعة ، كان يبسطه أن يشاهد المعارك الحربية ، والجيوش تتحرك في جحافل مرعبة ، بينما الرصاص يفتك بالجنود من الطرفين .

كانت البنادق والمسدسات في أيدي المتحاربين ، وكان يجلس مسترخياً في كرسيه المعتاد آخر الصالة ، وبالقرب من الحائط ، تتثاءب ، وهو يغالب وخمه ، ومنديله المطوي بعناية في جيب السترة ، يمسح به وجهه ، فتملأ أنفه رائحة "سيكريه" . هو الآن في قلب الفعل ، والصول يرفع يده بالعلم الأحمر ، ويأمره بالتقدم ثلاث خطوات للأمام .

" انتباه " . لأول مرة يعي أهمية هذا اللفظ ، فيحلله إلى حروفه قبل المزج ، ويدرك أن حالة الانتباه للهدف تعني له الكثير .

حمل السلاح الآلي ، وشعر بأن ثقله لا يحتمل ، والسونكي المدبب للأمام في غطرسة ثقيلة ، أكدت له خطورة الأمر .

خشخشة الصدور من حوله ، يسمعها ، وتسقط نظراته على أسراب نمل تتحرك يمين المدق ، ثم ما تلبث سحابة خفيفة أن تعبر فوق الهدف ، فتظلله لثوان معدودة ، قبل أن ينكشف عن ضوء صريح ، لا ريب فيه .

" انبطح " . أمر لا مجال فيه للتراجع . على نفس الخط الوهمي ينبطح البوطسي ، والأرناؤوطي ، وسراج القرنفلي .

كل يقبض على سلاحه في استماتة ، يلصق الدبشك بكتفه لصقاً ، ويغمض عينه اليسرى ، وتحط ذبابة على أنفه فيكاد يجن ، لكنها تبعد – ربما رأفة به – فيضع كل همه في الخط الواصل من فوهة البندقية إلى أسفل منتصف الهدف .

" استعد " . تتفتح في هذه اللحظة طاقة نور لتأخذه إلى عالم آخر ، حيث عليه أن يثبت رجولته . هي لحظة أشبه بلحظة الجنس ، واكتشاف

عوالم الأنثى ، وسحرها الخفي .

ربما كانت اللحظة بقسوتها ، وخشونتها ، على النقيض تماماً .
لكن الاصبع سيضغط ضغطته القوية بلا أي إحساس بالذعر . وقتها يدخل دنيا أخرى .

" اضرب " . وقف شعر رأسه ، ويسراه تحتضن مقدمة البندقية الملساء ، وصدغه يضغط بقوة على الدبشك الأملس ، ورائحة عرق تنفذ إلى نخاشيشه .

" اضرب " للمرة الثانية . اكتشف أنه لم ينفذ الأمر بعد ، وحينئذ هصر الزناد ، فشم رائحة البارود ، وارتج صدره فبادر ، بإطلاق رصاصات تلو رصاصات ، وعينه المفتوحة تدمع ، لكنه يواصل الرمي حتى نفذت طلقات الخزنة .

" انهض " . كان انساناً آخر لا يعرفه ، يهب من انبطاحه القسري ، وثمة رائحة بارود تختلط بعرق يتصبب من جبهته ، في تلك اللحظة لم يعد لديه شك في أنه قد ترك خلفه كل مفردات الماضي .

لم ينفض عن ثيابه بقايا الرمال العالقة بنسيج القميص ناحية المرفقين ، داخت رأسه لزمن يقترب من اللحظة ، وجد ساقيه تتحرك للمؤخرة مع زملاء الرمي .

ولقد شعر أنه أطلق رصاصاته الأولى ، وصار خفيفاً ، قادر على التحليق ، والارتفاع في الفضاء الفسيح إلا أن روحه البريئة أشعرته بالذنب .

تفادى النظر في عيون الزملاء ، وفي الليل ناوشه شعور خفي بالرضا من نفسه ، ولاحظ الشعيرات التي بدأت تنبت في صدره أسفل وأعلى الثديين ، وحول السرة !

في الليل شعر بأن روحه تنتحب نحيباً خفياً ، وكان عليه أن يضع رأسه على الوسادة الخشنة ، ويخفي دموعه التي تسللت على غير إرادة منه!

القســم الثـانــي

نظرة على حكايات الأخصائي

البنـــات

بعد خمسة وأربعين يوماً بالتمام والكمال في معسكر الأساس ، حصلنا على أجازتنا الأولى . أدركنا أن أصحاب الزي الكاكي لا يغادرون ثكناتهم إلا بتصريح ممهور بإمضاء رئيس العمليات ، والخاتم الأسود على هيئة نصف دائرة حاملاً كودي الوحدة .

بعد عودتنا تم توزيع الجزء الأكثر عدداً على الكتائب الميدانية على ضفة القنال ، وسيناء . لم يكن قد مرّ عام كامل على حرب ١٩٧٣ ، وفوجئنا بقوائم المميزين تُدفع إلى الأخصائي .

سألنا عما يعنيه تعبير " الأخصائي " ، فكان الرد أكثر إبهاماً : ستذهبون وتعرفون .

كان المعسكر في نفس المنطقة ، لكن القشلاق أوسع بكثير ، والنظام فيه أحسن ما يكون . هنا يتم تدريب سرايا المشاة المتعاونة : الهاون ٨٢ مم ، الرشاشات الخفيفة ، الـ م / ط ، الـ م / د . . وغيرها .

الصيف على وشك الانحدار ، ولم تعد تخوفنا طوابير التمام ، والتدريب ، والمهارات الأساسية في فك وتركيب البندقية الآلي ، ولا تنظيف الماسورة ، والسونكي صباح كل يوم .

في " الأخصائي " ، صرنا أكثر هدوءاً ، وأقل صخباً . والبكاؤن كفوا تماماً عن النحيب . والنعرة الكذوب عن الأصل والفصل توارت تماماً ، فالكل أولاد تسعة . ومهما قلبت الأمر على وجهه ، فلا وجود للعدل المطلق ، أو الراحة الأكيدة .

لأن العسكري يكدره أومباشي ، والأومباشي يضعضعه صول ، والملازم يفعل بما هم دونه رتبة كل ما يمكن تصوره ، أما اليوزباشي أو الرائد فهي نجوم ونسور تمشي على الأرض بالكاد .

سنعرف فيما بعد ، وحينما نذهب إلى الكتائب القتالية أن كل ذلك سيتبدد ، ليس تماماً ، ولكن ستكون هناك ترتيبات إلهية من لدى حكيم مقتدر ، تجعل الرتب الكبيرة أكثر رحمة ، وأدعى إلى التسامح رغم الخشونة الظاهرة .

لكننا الآن في الأخصائي ، وقد تيقن كل عسكري أن الأمر قد اختلف الآن . ولا بد أن توجد " البنات " . في صور فوتوغرافية داخل الحوافظ الجلدية . بنات مثل العسل ، ترقد صورهن بين طيات الأوراق الهامة . وفي كل فرصة مناسبة ، وبلمح البصر يتم التوحد ، وتشهق الصدور المعذبة بفراق قسري لا راد له : في الأساس كانت هناك إشاعة قوية بأن القيادة تدس سائل الكافور في مشروبنا المبجل " الشاي " ، فتهمد الأعضاء ، وتسكن الأطراف .

في الأخصائي ، صار الأمر أسهل نسبياً ، فالحصول على تصريح بالمبيت يمكن مرة أسبوعياً ، وهي فرصة نادرة لشرب الشاي العادي في المقاهي ، والغرز القريبة حول القشلاق .

يمكن الآن الخروج خميس وجمعة ، وسيندفع الكل تجاه محطة المترو ، هناك يمكن رؤية البنات في أبهى صورة ، كل واحدة تحتضن حقيبة المدرسة ، وتخفي الصدر الناهد لحين .

أفراد المعسكر تغيروا ، وصار التعارف أسرع ، يبدأ بإشعال سيجارة ، ولا ينتهي إلا بالعودة للقشلاق بعد أربع وعشرين ساعة تشغلها حكايات عن البنات .

البنات في المناطق الملاصقة لمعسكرات التدريب كلهن حرص واحتراس ، كلما ابتعدت إلى الأطراف يمكن أن تعثر على بنت جميلة ، شعرها ذيل حصان ، ونظرتها حنان ووله . بنات ممشوقات يرتدن الكريب والحرير ، والبلوزات الصيفية المفتوحة حول الأعناق .

كل الحكايات تبدأ باصطدام صنعته صدفة ، واعتذار ، ثم تمشية على الكورنيش ، حيث يلعب الترمس دوره الخالد في تقريب المسافات بين العشاق ، فهو – أي الترمس – يصنع مسافة زمنية بين كل سؤال وجواب ، مسافة زمنية كافية تماماً لتدبير الكلام المناسب .

وتصبح الوردة الحمراء ،أو عنقود الفل المرصع بالياسمين هو عربون المحبة.

كل رجال " الأخصائي " يبحثون عن البنات ، وعن قصص حب حقيقية أو زائفة . المهم أن تكون هناك فتاة تنتظرك كل خميس على رصيف المترو ، أو أمام سينما صيفية ، وربما في حديقة عامة مفتوحة .

لا أحد من العساكر يفكر في الحرام ، أن القلوب الكليلة لا تعرف الملاوعة ، والكذب . فتنة البنات تتجلى في لحظات الصمت الطويلة حين تتماس الأصابع ، وتسري الارتجافة من الأكف إلى الصدور .

ما حال ابن النفيس ، وهو يكشف عن الدورة الدموية للإنسان ، هل اكتشف فروق في الدرجة بين سريان الدم في قلوب المحبين ، وغيرهم ممن لم يدخلوا في تجربته ؟

هل للأفرول الكاكي سحر ، وهل للبيادة السوداء الثقيلة فتنة ما؟

لا أحد يظن هذا . ربما كان السر في تلك الأجساد الفتية التي تتفجر صحة وعنفواناً ، والأذرع المفتولة التي تعلن عن رجولة حقيقية .

أما الشعر المفلفل القصير بطول ربع بوصة ، فهو يخص القشلاق وقوانينه الصارمة لا الأفراد المغلوبين على أمرهم . كذلك فإن البشرة السمراء التي دبغتها الشمس فإن لها طابعاً شعرياً ، يخطف قلوب البنات خطفاً .

القلوب الغضة بحاجة إلى حب بريء ، يبحث عنه العساكر في أجازة الخميس والجمعة التي تستمر في " الأخصائي " لشهرين كاملين .

الضفائر الناعمة الطويلة ، والشعور المنسابة على الظهور تقوم بالفعل نفسه . فهي تومئ إلى طبيعة الشخصية . أما لغة العيون فهي الحد الفاصل بين الموافقة والامتناع . وتظل هناك منطقة محايدة ، تتقلب فيها القلوب ، بين الرفض والقبول ، فالحب بحر غويط ، يحتاج إلى غواص ماهر .

والعساكر ككل الرجال ، يحتاجون إلى البنات أكثر من غيرهم . فالحرمان الطويل يولد العطش . ولمسات قليلة من الطبيعة تحول البنت البريئة إلى فتاة باهرة الجمال .

لكن في ليل المعسكر ، لا أحد يبوح بسره ، لا أحد يسمح

للآخرين بانتهاك سره ، حتى لو كان ذلك بالتلصص ، واستراق النظر إلى صورة فوتوغرافية ، فالمبدأ لا يتجزأ .

وهذا ما دفع عبده طه لأن يتشاجر مع زميله يوسف الفناجيلي حين كان يستحم في الخلاء بزمزميته ، وعاد ليجد صورة فتاته بين يدي صاحبه ، يحملق فيها بفضول غريب .

صعد عبده طه الأزمة ، وأقسم أنه سيثأر لكرامته ، وجلس في ركن الخيمة مقهوراً ، منزوياً ، يزم شفتيه في غل مكتوم.

بعد أسبوع واحد كانت صورة " نوال " بين يديه يقلب فيها بنفس الفضول ، بعد أن ذهب زميله إلى الأدبخانة وعاد بعد ربع ساعة .

حملق العسكري يوسف في الصورة ، وعلا صوته تسخيناً للمشاجرة ، فسارع خصمه بالحديث :

انتظر . . واحدة . . بواحدة .

وظل " الأخصائي " ضمن طوابيره المتعددة مطمعاً لكل عساكر المشاة المستجدين بحثاً عن نسمة هواء منعشة عصر كل خميس وجمعة ، ولكنه لم يكن يستحوذ إلا على المتميزين في فرز حقيقي واختبارات دورية في " الأساس " .

في هذا المعسكر كانت الأفرولات العسكرية قد تم تضييقها أو توسيعها لدى الترزية في كافة مدن وقرى القطر . وصار الزي أنيقاً ومناسباً ، بل أن البعض تفتق ذهنه عن حيلة بارعة ، وهي إخفاء زي خاص بالأجازة ، فيه كل فنون الموضة ، وأصحاب هذا الاتجاه كانوا فريسة دائمة لرجال الشرطة العسكرية في مطارداتهم الليلية المثيرة .

أما أبناء الريف ممن نهشتهم البلهارسيا ودودة الانكلستوما ، فقد كان لهم حريمهم ، من بنات العم والخال ، وعادة ما يتم عقد القران فور الانخراط في الجندية . ويسمى هذا " حبس " العروس لحين انتهاء فترة التجنيد .

قلت في بالي : حبس هنا ، وحبس هناك .

لا أحد سمعني ، وسيطرت عليّ فكرة : ماذا لو خلق الله الكون بدون بنات ؟

وماذا كان العساكر يفعلون في أجازاتهم بغيرهن . إن هذا الجنس اللطيف ، الآسر ، المعذب للرجال ضرورة . إن غموضهن ، وجمالهن الأكيد يدحض كل نزعة للجنون الخالص .

حمدت الله أنه خلق البنات ، للعساكر ، يحببهن في إخلاص ، وود

حـرامـي الـحـلـة

الجيش تأديب وتهذيب وإصلاح . أنت لا تستطيع أن تتحرك إلا بناء على أوامر من هو أعلى منك رتبة .

يسري هـذا المبدأ على البشر في سلك الجندية . في البداية تشعر بالقيود التي تحاصرك ، وبالسلاسل تصلصل داخلك . لكن العسكري المصري داهية في البحث عن ثغرات ، ومواطن الخلل ، لـذلك تجـد أن الأوامر لا يتم تكسيرها ، بل الالتفاف حولها في براعة .

فمن يضيق صدره بطوابير التدريب في عز الحر ، عليه أن يصيب نفسه بحمى صناعية ، بأن يأكل علبة حلوى كاملة ، يتبعها بابتلاع حفنتين من الشطة السوداني ، فإذا بالعرق الغزير يتفصد على الجبهة ، والبدن يرتعش . ويكون من الضروري نقله إلى السرية الطبية ، التي تجهز سيارة " زل " قديمة متهالكة كي تنقله على وجه السرعة إلى أقرب مستشفى ، كان هـذا هو السائد في " الأساس " ، أما في " الأخصائي " فهناك تدريب عنيف ، لكن ثمة فترات راحة معقولة .

رغم هذا ، فقد طقت في دماغ فكري الحلو أن يرى شوارع الحي الراقي في غير أيام الخميس والجمعة ، وخاف أن ينكشف أمره إذا ما تجرع الحلوى والشطة . وابتكر حيلة جديدة بالتعاون مع ملاك حنا صاحب القبضة الأسطورية . فقد أعد العدة لوضع نوع من الدهان على الوجه والعنق ، ثم وقف في الشمس مقدار ساعة كاملة ، وسرعان ما صار جلده أحمر مشدوداً كأنه الطبلة ، راح يسب ويلعن ، ويصيح أن

مرضاً قد أصاب جلده ، أخفى الجميع ما رأوه من أمر الدهان ، وتم تحويله مع توفيق مصيلحي ، وملاك حنا نفسه ، شريكه في المؤامرة .

وبعد التوقيع على أورنيك العيادة ، سارت العربة في طريقها مشيعة بنظرات الحسد الأكيد .

في الشطر التالي من النهار ، لم يكن هناك شيء يفعله العساكر ، لذلك تفتق ذهن لطفي فرو أن يلعب مع الحشرات . نقب في أنحاء المعسكر على زجاجة تشف ، وملأها بالرمل الساخن الذي تشعر بأنه جمر من النار ، ثم راح يصطاد النمل الكبير المعروف بالاسم الحركي " حرامي الحلة " ، ويضعه داخل الزجاجة ثم يرقب الصراع الدامي بين النمل الأسود الحبيس الذي يحاول الصعود ، وكلما نجحت نملة في الوصول إلى حافة العنق ، هزها – أي الزجاجة – بعنف ، فراحت تتزلق وتحاول من جديد .

كان لطفي فرو يمارس لعبته الغريبة ، بكثير من المتعة ، فلما جاء زميله الحناوي ليسأله عن سر ما يصنع . نظر إلى وجهه في تحد عنيف وكأنه يلكمه بالكلمات ، صرخ في وجهه : ألا ترى ، هذا ما يحدث لنا يا دفعة ؟

فلما أراد الاستفسار : كيف ؟

هز رأسه بعد أن يأس من غباء هذا العسكري الذي يأخذ الأمور ببساطة : إنني أبحث عن السبب ، وسأهتدي إليه .

إلا أن النمل الأسود لم يكن وحده ، كانت هناك سحالي خضراء زاهية اللون ، لها جلد مبرقش تخشخش تحت الأوراق ، لم ينجح أحد في اصطياد سحلية باستثناء لطفي الذي ادخر كل جهده للبحث عن كل جحر تحت أعمدة الأسلاك الشائكة ، فيمد يده يتحسس الممرات الخالية ، وتروح أصابعه تبحث هنا وهناك حتى نجح في تحديد مداخل ومخارج عدة جحور ، وفي كل مرة توشك خطته العدوانية على النجاح ، وتفر السحلية بأعجوبة مستخدمة وسائل الهرب المذهلة . فهي ملساء ، خادعة ، تعرف كيف يمكنها أن تراوغ .

في المرة الوحيدة التي نجح فيها لطفي فرو في غزو مملكة السحالي

كان باستخدام " ضلع الهايك " ، إذ ألقاه ، وقبض على الجسد المستطيل الذي كنا نرى نبضه من تحت التيل المموه .

أحكم لطفي الغطاء على صيده الثمين ، وأقسم أن الدور قادم على العناكب وهذه حكايتها حكاية .

العناكب في هذه الصحراء ليست من الفصيلة الهزيلة التي تصنع خيوطها الترابية في الأسقف العالية ، وبين الجدران ، وتجبن إذا ما شعرت بخطورة إنسان .

إنها عناكب تصلح لخيام العساكر ، بل أن لونها الباهت الضارب إلى الصفرة مع حجمها الكبير نسبياً ، وحركتها السريعة جعلتنا لا نطاردها ، إذ ليس ثمة ضرر من وجودها في " الأخصائي " ، بل صرنا نتقبل وجودها مثلما نتقبل وجود فصائل الكلاب التي باتت أسمن ، ولا تقبل إلا على الثمين من الطعام .

كلاب الأخصائي ليست هزيلة مثلما كان الحال في الأساس ، ولا يوجد لها مواعيد ثابته تأتي فيها مثل موعد صرف التعيين . كأنها أدركت أن هؤلاء العساكر في بحبوحة من العيش ، وهو أمر نسبي ، لذلك كانت تتكاسل وهي تأتي فرادى ، فإذا ما قذفت بعظم من فخذ الضاني ، فهي تتلكأ ولا تعدو ، بل تقدم ساقاً وتؤخر ساقاً .

ولقد رأى لطفي فرو هذا التكبر فاغتاظ للغاية ، وقف على طول السلك الشائك ، وصرخ فينا أن فتفوتة الخبز حرام في هذه الكلاب التي تتبطر على النعمة ، ويتمردون .

ونكاية فيهم كان يقف بالمرصاد لزملائه الذين اعتادوا إلقاء التعيين الزائد بالقرب من تجمعاتهم ، فيتناوله بيده ، ويضعه في سلال المهملات بلونها الزيتي .

جاءت الكلاب ، وراحت تنبح ، وتتجمع في حشود لم نكن نراها من قبل . وقد أعد لطفي فرو نقطة مراقبة متحركة لإنجاح مخططه ، حتى أن قائد الكتيبة استفسر عن استمرار هذا النباح المزعج لعدة أيام ، دون أن يخبره أي شاويش بما يفعله العسكري الذي يحبس " حرامي الحلة " لأيام ، ثم يطلقه ، فإذا به يتحرك كرجال قد أصابهم الهرم بصعوبة

بالغة ، بعد ما كانوا يزحفون في سرعة فائقة .

أمر خطير أفشل خطة لطفي فرو ، فبعد أن عمت المجاعة جماعة الكلاب ، لم نشعر إلا بهجوم شامل وقت توزيع تعيين الغذاء . لقد تسللت جموعهم زرافات ووحداناً ، ولم يتجاوزوا حد الأدب ، لقد راحت تتبح في توسل ، وتهز أذنابها في إلحاح منكسر ، بينما فرو ينظر إليها بوجه محتقن .

لم يجد العساكر بد من إلقاء بعض ما معهم من جراية ويمك ، وقطع العظام الخالية من اللحم ، خارج السور لتعود الأمور إلى نصابها ، ويفشل مخطط لطفي فرو ، الذي رأى الواقعة فصرخ في وجوههم : أيوه كده يا أولاد الكلب .

وجلست الأطقم والجماعات تتناول طعامها ، وهو يتوعد الكلاب بيوم مر ، ولم يحدث هذا ، فقد انتهت مدة الفرقة على خير . وقبل أن نغادر المكان وقفنا نودع الكلاب التي كانت تحاول التمسح في أقدامنا بالرغم من السلك الفاصل .

خنافس

تتعلق العناكب في حركاتها السريعة بخيوطها الترابية ، وتعدو الفئران من حفرة إلى أخرى بحذر محسوب ، أما تلك فإنني أشعر معها بالبؤس وقلة الحيلة .

إنها الخنفساء . لا مثيل لبطئها ، وسيرها في مناطق مكشوفة دون أي حماية أو غطاء . لها خشخشة حالما تحتك بأوراق الشجر الصفراء المتساقطة . وللونها الأسود لمعان غريب ، سرعان ما ينطفئ خلال تسرسب الرمال فوق هيكلها البيضاوي الخفيف .

لا يخشى العساكر الخنافس . يتركون للبيادات مهمة السحق ، كان ذلك في البداية ، خوفاً من دخول الملاجئ ، فلما ظهر أنها تحرص حرصاً بالغاً على أن تعيش في أماكن معزولة ، بعيداً عن البشر ، قلت عمليات الإبادة . ومضت الخنافس في سيرها البطيء ، المطمئن ، الدؤوب .

حنفي وحده الذي كان يناصبها العداء ، خاصة في " الأساس " لأن منظرها يثير تقززه ، فكان يترصد صفوفها ، ويروح يدهسها ، ونحن نسمع الصوت الخشن للانتهاك ، حيث تتوالى طقطقات خفيفة ، يمكننا أن نحصي بها عدد الضحايا.

وحنفي لا يخفي حنقه من اليوم الأسود الذي أتى به إلى هذا المكان ، فقد رفع في داخله راية قاتمة سوداء ، وظل يلعن الظروف ، وكلما رأى تلك الكائنات تسير في اطمئنانها الواثق يشتد غضبه ، ويعبر عن نفاذ صبره بأن يدهسها دهساً بلا هوادة .

اليوم ، وفي راحة الغذاء ، خرج العسكري حاتم ليأتي بالتعيين ،

حتى لا يتأخر عن الصرف ، وضع قدميه في أقرب حذاء ميري ، واندفع إلى الطابور ، حيث أعطى تمام السرية ، وشعر بشيء يلعب في إصبعه .

لم يعر الأمر اهتماماً ، ركز كل تفكيره في أن يحصل على الجراية كاملة ، وقطع لحم يمكن أن يقسمها بالطريقة الشائعة ، التي تعتمد على ميزان حساس باليد ، وداخل الأصابع المدربة على إشاعة العدل في " الزفر " واليمك !

كنا قد خلعنا الأفرولات الكاكية ، وجلسنا بملابسنا الداخلية ، نستروح شيئاً من النسيم الذي يهب هبات واهنة ، متقطعة .

وأتى العسكري حاتم حاملاً التعيين ، فقمنا نساعده ، وقبل أن نهب من مكاننا ، وجدناه يضع الأروانات جانباً ، ويخلع البيادة ، ويقلبها ، فتخرج خنفساء لعينة ، تمضي في طريقها ، وعليها أن تكمل ما بدأته .

كان يمكن أن ينتهي الأمر بهذه البساطة ، ولكن الله له حكمة في إعطاء بعض الرجال عقول العصافير . ففي لمح البصر أسرع حنفي إلى الملجأ ، ليحضر فردة بيادته ، ويسحق بها الكائن الذي لا يطيق رؤيته .

كان منظراً مقززاً لكل من رآه ، خاصة وأن العسكري حنفي في هجمته الشرسة على الكائنات الشبيهة ممن صادفها حظ عاثر بالمرور في المنطقة ، قد اصطدمت قدمه بأروانة اليمك ، فأطاح بها ، وانسكب التعيين الشهي ، واختلط الإدام بالرمل .

وكأن في صدورنا بركان ، كان عليه أن ينفجر في التو ، فقد هجمنا على ذلك العسكري المعتوه ، ورحنا نركله بأقدامنا ، ونصفعه بأيدينا ، وهو يصيح بنا أن نتركه .

كان يبدو متكوماً بشكله المذري ، يخفي وجهه بيديه ، وكل منا يكاد يبكي على الطعام الضائع ، فليس معنا نقود لنشتري من " الكانتين " ما نأكله .

تصاعد البخار ، وصعد الدم إلى يافوخ الجميع ، وهم ينعتون العسكري حنفي بأبشع الصفات ، وتراءى لنا في تلك اللحظة أشبه بالخنفساء التي تتعرض لمكائد الدهس ، ورغم أن العسكري حاتماً ، أسرع بإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فحمل الجراية ، وما تبقى في قعر أروانة

اليمك من بقايا الطبخة السوداء ، فقد كنت أشعر بنفس صوت الطقطقة التي كانت تصدر من حشرة الخنفساء .

حين انفثأ الغضب ، كانت عودتنا بظهور محنية إلى الملجأ ، وكان رزق الذي فرد مشمعه وأحاطه بقطع الحجارة يجلس متحسراً ، واضعاً رأسه بين كفيه .

رأى حنفي يعود هو الآخر مخذولاً ، وحامد يعصر ذهنه في كيفية توزيع الطعام بلا يمك .

هبط خاطر مفاجئ على رأس رزق ، الذي صعد إلى سريره ، وأخذ هيئة الخطيب :

يا معشر السرية . إنها أيام قحط ، فمن لم يجد يمك ، فعليه بالجراية ، يفرجها المولى من عنده .

ضج المكان بالضحك ، ورضى العساكر بالغموس القليل ، وابتهجت نفوسهم لأن قطع الباذنجان القليلة المتبقية كانت أشهى من أي طعام . أكلوا ، وقبلوا أيديهم ظهراً لبطن ، وقالوا جميعاً قبل رفع المشمع عن الأرض : سفرة دائمة !

شـربة مـــاء

تعددت الأسباب ، والموت واحد . فكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول . كلام صحيح ، وهو بيت شهير لشاعر مدح الرسول ، واعتذر بأدب عما سلف .

لكن ما حدث للعسكري بطرس شيء تعجز عن فهمه الألباب . خاصة وأن هذا العسكري البدين صامت ، لا يتكلم إلا فيما ندر ، وحديثه أقرب إلى الهمس . لا تسمع منه سوى : حاضر يا أفندم . . تمام يا أومباشي . . أوامرك يا حضرة الصول . وهو برغم بدانته المفرطة إلا أن عضلاته منتفخة ، فهو حريص على أن تبدو مفتولة ، وصدره المتضخم المكسو بالشعر يؤكد لك أن نظرية دارون في محلها .

إنه مهذب ، صامت ، محبوب من الجميع لأدبه ، لكن إياك أن تنبشه ، وتثير غضبه ، فما يحدث سيجعل سيرتك في القشلاق عبرة وعظة .

وما حدث في السادسة والنصف جرى بنفس التسلسل الذي سأذكره حالاً . إذ كنت قد خرجت في نوبة " البرينجي " وناديت حكمدارية الجماعات كي يسرعوا بتسلم تعيين العشاء ، وهو عبارة عن " مكرونة " وقطع من الجبن المطبوخ .

وكعادة أفراد كل جماعة ، رأوا أن المسألة لا تحتاج إلى إعادة تقسيم ، فباستثناء عساكر الخدمة الذين سيضعون نصيبهم في أروانة

الفرد ، يمكنهم تناول الطعام سوياً . ولم لا ، وفي اللمة بركة ، وهنا، قلة قناوي أحضرها رزق من الطلبية ، وفوقها طبقة من الخيش لزو، التبريد .

أسرع كل عسكري بإحضار ملعقته ، وبقبضة يده ضرب العسكري حاتم البصلة ففدغها ، وامتدت الأيدي للحصول على شريحة صغيرة .

وبالتعبير العسكري " بدأ الضرب " ، أي تناول وجبة العشاء ، وامتدت يد بطرس بالملعقة ، يغرف ، ويحدف المكرونة في فمه ، بدون مضغ ، وهو يسابق الزمن ، لكن لا أحد يعترض ، فالتعيين يكفي ويفيض . ربما هي ست أو سبع ملاعق . وإذ ببطرس ، يفز واقفاً ، وقد جحظت عيناه ، وتقلصت ملامح وجهه ، وراح ينتفض كالمخنوق ، وأسرعت يد رزق لتناوله القلة . فأمالها سريعاً ، وتجرع بعض الماء الذي وقف في البلعوم ، وراح بطرس ينتفض دون أن يتمكن من الكلام، وأسرح حنفي وراح يخبطه خبطات متتالية خلف ظهره دون جدوى .

أزرق وجه بطرس ، وغامت الدنيا في نظره ، ورأيت أن أترك مكان خدمتي وأندفع بكل ما أملك من قوة ، فأدفع بأصابعي في حلقوم الرجل ، وهنا رأيت نافورة تخرج من فمه . ويطلع صوته محشرجاً ، ويرتمي على الأرض وهو يأخذ شهيقه ، ويخرج زفيره في صعوبة بالغة .

التفقنا حوله ، نمسح عرقه الذي تكثف على جبهته ، ونربت على كتفيه في حنان . كنا نحبه ، وكأنه قادم من عالم الموتى ، خرج صوته متقطعاً : كنت سأموت . قال أغلبنا : الحمد لله . ربك كريم . لقد كُتب لك عمر جديد .

حينئذ، استرجعت دعاء أمي على من ظلمها بأن يقف الماء في "زوره"، و" الزور " هو التعبير الشعبي للبلعوم . قلت في سري : الرجل كاد يذهب في شربة ماء . . هذا ما رأيته بعيني .

وإثر اللمة ، جاء صول من " الحملة " ، وسأل عما حدث، وضرب بطرس على صدره ، وقال : أحمد الله ، غيرك راح فيها لما اعترضت حبات ترمس مجرى الهواء في الحلق .

كـان مـازال غـير مـصدق أنـه حـي يـرزق ، راح يتلفـت حولـه يمـسح بعينيه المكان . وقال إنه المخطئ ، وعليه أن يمضغ الطعام مثلما درس في كتاب العلوم ، وأكد لنا أن بلع التعيين كاد يؤدي به إلى التهلكة .

في العاشـرة بـدأت نوبـات " الكينجـي " ، وعـدت إلى الملجـأ . كـان بطـرس – الـذي كُتب لـه عمـر جديـد – يجلس في صـدر الحلقـة ، علـى جركن بلاستيك مقلوب . والجميع قد أعد احتفالاً بنجاته .

تأملته ، وأنا مجهد بعد وقوف أربع ساعات على ساقين ضامرتين ، ورأيت في عينيه لمحة وفاء ، تغشيها سحابة حزن عابرة .

أفسح لي مكاناً إلى جواره مد يده بسيجارة ، وكان يعرف أنني لا أدخن ، شكرته وأخبرته أنني متحير لما حدث .

لكزني في صدري بمودة ، وهمس في أذني : تأتي على أهون سبب ! ثم جذب يدي ، وخاصرني في رقصة مجنونة مع توقيع صاخب على الأكف ، فقد كان بطرس فرحاً أنه لم يذهب في شربة ماء !

مــــــرآة

لا وقت للزينة . بالتأكيد هذا شيء يعرفه كل من انخرط في الجندية ، ولاسيما " الأخصائي " . الخشونة هنا تشمل الأشياء جميعها . الطعام ، والاغتسال ، الصحو ، النعاس ، فترات الراحة ، نوبات الخدمة الليلية .

غير مسموح بمسح الشعر بأي نوع من الفازلين أو الكريمات . وحصولك على " مرآة " هو أمر أقرب إلى المعجزة ، فهذا ممنوع أيضاً . وتتم حلاقة الذقن بالتقريب ، وعليك أن تمرر ظهر الكف على الخدين لتكشف مدى النعومة ، وهل ثمة شعيرات نافرة من عدمه !؟

العسكري حاتم عيناه تدمعان ، مليئتان بالقهر ، وجهه محتقن ضارب إلى الحمرة القانية ، فقد كُسرت مرآته صباح السبت وعليه أن يتدبر أمره .

قال لنا مساء الجمعة أنه قابل حبيبته في المكان المعهود ، ودخل معها السينما بتذكرتين ، دس يده في جيب سترته وأخرج الكعبين ، فصدقناه كلنا . وفي اختبار كشف الكذب أجلسه رزق على حافة السرير ، وطلب منه أن يحكي قصة الفيلم الأفرنجي .

حبسنا أنفاسنا ، ولم يرتبك حاتم ، بل غمز بعينه اليسرى وهز رأسه هزات الواثق بنفسه . وعلمنا – نحن البلهاء من العساكر المستجدين – أن السينما بشريطها الفضي الساحر لم يخترعها أصحابها لشئون الفرجة فقط ، فهناك ما هو أهم وأخطر .

وقبل أن يحتج رزق على هذا الهروب ، أزاح الفوطة الميري التي تخفي

الضوء ، وراح يشرح لنا بتؤدة : على مقعدين متجاورين جلسنا ، أمسكت يدها ، وأراحت رأسها على صدري ، كانت يداها توشكان على ملامسة عنقي حين انقطع الشريط ، وأضيئت الأنوار فاعتدلنا .

كان الفضول قد أخذ منا كل ما أخذ ، واقترح حامد أن نجهز دور شاي ، بشرط أن يترك الشريط مقطوعاً حتى ينتهي . نظرنا إلى العسكري حاتم الاسماعيلاوي الدحلاب ، وقلت في سري : هذا الولد فشار ، وسوف أكشفه .

عندما تناول كل منا كوب الشاي ، أخفى حامد " وابور السبرتو " في المخبأ المصنوع ببراعة ، تحت قائمي السرير الخلفيين .

قلنا نستعيد الموقف : وانطفأ النور ثانية .

رد العسكري حاتم وهو يلهث : كانت ثمة معركة حامية بين عصابة المافيا ، ورجال الشرطة ، وحين احتدم الصراع ، وانطلقت الرصاصات من هنا وهناك . فعلتها .

استوضحه رزق ليضع النقط فوق الحروف : ما الذي فعلته بالضبط ؟

ضحك حاتم وهو يسخر من رزق ، ويستصغرنا بنظرته التي حملت لنا احتقاراً مضمراً : ألا تعرفون يا عيال !؟

وتركناه يروي الواقعة كما يريد : ضممتها إليّ ، ثم قبلتها قبلة طويلة ، كانت شفتاها حلوتين كالعقيق .

قاطعته : الياقوت أقرب من العقيق .

رد عليّ بعنجهية : اصمت يا جاهل .

واصل حكايته التي كنا نستمع إليها غير مصدقين : فتحت عينيّ على أعضاء عصابة المافيا مضرجين في دمائهم . ولما جاء وقت الدفن ، وسارت النعوش باتجاه القبور المفتوحة ، كانت فرصة أن تمتد يدي إلى أزرار البلوزة ، لأفكها بهدوء ، واقتنص النهدين بقبضة يد لا تعرف المهادنة .

ضربه رزق على ركبته المفرودة ، وصاح به : كاذب : لأن من يجاورونك لن يتركوك في حالك .

كان رده جاهزاً : كلهم كانوا يفعلون مثلي ، وأكثر .

ومع " أكثر " هذه انفتحت حكايات ، وتعددت الروايات ، ونفرت عروق العساكر المحرومين من البنات .

وأرانا بعد أن هدأ انفعالنا صورة جميلة ، قلنا في نفس واحد : سعاد حسني .

شخر لنا ونخر : أعرف . لكن خذوها تميمة للحب .

مد يده وأخرج المرآة ، ورأى كل منا وجهه وقد صعد الدم فيه ، قلنا في تأنيب ولوم : هي ضرورية لنا جميعاً .

رد حامد ، والغضب يعصف به : قالوا ممنوع .

عاجله رزق بتحدٍ حاسم : مثل وابور السبرتو ، والطعام الملكي ، ومجلة الشبكة ، وكل الممنوعات الأخرى التي تعرفونها ، ندفنها في المخبأ السري !

هززنا رؤوسنا موافقين . خرج عساكر الخدمة لنوبة البرينجي ، وحاول الباقين النوم .

صباح اليوم التالي ، في السادسة ، أوقبلها بقليل ، قمنا لطابور الرياضة ، ومن المخبأ أخرج العسكري حاتم المرآة ، ونفض الغبار الخفيف عن سطحها المصقول ، أسندها على الحافة الحديدية لسريره .

في قيام ياسين المضطرب من نومه ، وقعت المرآة ، وانكسرت ، تناثرت شظايا هنا ، وهناك .

دعك عينيه المحمرتين ، أزاح الهم الجاثم في المكان : سنحضر غيرها الجمعة القادمة .

قالها بصوت منكسر ، وكان الجَمع قد أوشك على الاكتمال ، ولم يفكر واحد منا أن يلمم الشظايا التي راحت تعكس ضوء الشمس الوليد باستماتة !

زيـــارة

أخذني سراج القرانفلي إلى مستشفى عسكري كبير في إحدى ضواحي القاهرة . كان ذلك صبح الجمعة ، والشمس تخترق أشجار الكافور الهائلة وتسقط كقطع من الذهب . واجهات المباني مغسولة بالماء ، وأشجار الزينة مقصوصة بعناية بالغة . هناك سلك على شبابيك الغرف ، وممرضات يرحن ويجئن ، رأيناهن من وراء السلك .

كانت أجازة ٢٤ ساعة ، رأيت أن أقضيها في القشلاق ، لكنه أخذني معه ، ورفض إلحاح حاتم الاسماعلاوي الدحلاب في أن يشاركنا الزيارة .

كان بأفروله الكاكي ، وكنت . نسير في الطرقة الطويلة المغسولة " بالفنيك " ، وبطني تزوم وتكركب من الجوع . لا يمكنني أن أخبره أنني لا أمتلك مليماً واحداً . فآخر قروش تبقت معي ، اشتريت بها ماكينة حلاقة ، وشفرة . وتأكدت أنني سأحلها بالصوم فهو وجاء ، وعليّ به .

كان الأطباء يرتدون معاطفهم البيضاء ، وفوقها رتب ، الواحدة منها تحرق معسكر ا صقور ، ونجوم ، وسيوف تتقاطع مع عصى . ونحن نمضي في بلاهتنا بلا أي إشارة ، أو علامة مميزة .

إنه يعرف هدفه ، وأتبعه صامتاً ، وكلما تأخرت جذبني من يدي وصاح في وجهي : أسرع يا مجنون .

كنت أفتح عينيّ على باقات زهر ، أشكال وألوان ، في سلال

خوصية ، تحزمها أشرطة الستان الملونة . تمتمت في سري ، وأنا أحدق في جمال الغرف : ما أحلاه من مكان !

فجأة استوقفنا رجل الأمن قبل الصعود إلى الأدوار العليا : هل هناك بطاقة زيارة ؟

هز سراج رأسه نفياً ، وأخبره أن عمه في الدور الثالث ، بالغرفة (٣١٠) .

لكن رجل الأمن هز يده معتذراً : إنها أوامر . فلما طلب منه مهاتفة العم ، رفض في إصرار ، ودفعنا بيديه إلى الخارج ، وهو يكرر كلماته كالملسوع : ممنوع . . ممنوع !

صبغ الخجل وجنتيه ، وراح يسب ويلعن العقول المتحجرة . ثم علت صرخاته : عمي هذا . . الزيارة خسارة فيه !

تصنعت الغضب ، لإهدار وقتنا في زيارة فاشلة لم تتم ، واقترحت عليه أن نذهب إلى "البوطسي" ، فهو الوحيد الذي أعرف عنوانه في خان الخليلي . تشكك في جدية الزيارة . بان ذلك على تقاطيع وجهه ، واقترح أن أذهب معه إلى فيلا العائلة في مدينة نصر . هززت رأسي ، وكلماتي تتضح بالسخرية : من الجائز أن نسمع ممنوع مرة أخرى !

لم يكررها ، وتبعني كالمشدوه . اقترضت منه نصف جنيه ، فشعرت بالأمان . رحنا نقفز سلالم الأتوبيس المسرعة وهي تبطئ سيرها في منحنيات الطرق ، ونشعلق أجسادنا في فراغ الأبواب الخلفية المفتوحة على مصراعيها .

كنت قد حصلت على عنوان البوطسي ، أيام الأساس ، ولم أزره مرة واحدة . وكانت بيننا صداقة صامتة . نشترك في أمرين لا ثالث لهما : قراءة القصص ، والكتابة .

لم أكن أعرف عنه سوى أنه دودة كتب ، صامت أغلب الوقت ، له عينان حزينتان ، وقلب كسير .

تهنا بين الحوانيت ، وفي يدي قطعة الورق تحمل العنوان ، وقد انمحت بعض الحروف ، لكن أغلب الكلمات واضحة .

جولنا النراجيل النحاسية ، أطباق الصدف ، تمائم أثرية مقلدة ،

وإلى جوارها خراطيش الملوك بالرسم الهيروغليفي .

سألنا ، وتعبنا ، فضحك سراج ، وقد خرج من إحراج المشوار الخائب : لنعتبره طابور ذنب .

صعدنا عدة درجات ، وأفضى الطريق إلى عتبة رخامية عتيقة ، أشار لنا رجل معمم بيده على المكان : عائلة البوطسي.

وكان بجوار قبة خضراء ، ولوحات حلوة في المدخل . أحذية مطبوعة بالجعران المقدس ، وقمصان عليها صورة الطائر حورس ، ثم دقات لصنايعية في الداخل يكفتون الفضة في استدارة الأطباق النحاسية .

قال سراج بصوت خافت سمعته بصعوبة : لن نجده . . قلت محتجاً : سيكون الفشل الثاني على أية حال !؟

اتجهت إلى مدخل الدكان ، وألقيت نظرة على الداخل . كان الضوء شحيحاً ، وأكثر من أربعة أفراد منكبون على عملهم في هدوء لا تقطعه إلا هذه الطرقات المتتابعة .

ثمة لوح زجاجي شفاف ، طرقته بإصبعي ، ودخلت ملقياً السلام ، ، ومن خلفي سراج الذي تقطعت أنفاسه من اللف والدوران .

قبل أن أسأل عن البوسطي ، لمحته في طرف قصي ، يطرق بشاكوش صغير ، وقطعة حديد معقوفة طبقه الفضي ، وقد استولى عليه حرص بالغ لتجويد الصنعة ، فلم يشعر بنا .

تسحبت على أطراف بيادتي ، واقتربت منه ، رأيت إيزيس تحمل طفلها الإلهي (حورس) ، وفي الفضاء الروح (با) تحلق في صورة طائر ، أما القرين (كا) فيتمدد في مقدمة اللوحة .

كان الطريق يرج داخلي ، ويد سراج تلكزني أن أتكلم ، أن ألقي السلام على صديقنا المشترك : العسكري بوسطي .

هو الذي رآنا ، حملق فينا كالمأخوذ ، رفع قلمه الحديدي المعقوف عن المجرى . وقام يحتضننا ، رأيت الفوطة على صدره مثلما يفعل الأسطوات في مدينتنا .

قال والفرحة ترجه : حمداً لله على سلامتكم .

وانطلق ليحضر لنا أكواب التمر هندي الساقعة . جلس إلى جوارنا

على مقاعد خوصية واطئة : خطوة عزيزة .

كبر العسكري بوطسي في نظري ، ولمحت (عنخ) رمز الحياة الأبدية خلف رأسه مباشرة .

خرج صوتي متقطعاً : قلنا أن نزورك . هل نعطلك ؟

ربت على كتفي وأقسم أن يكون غداؤنا عنده .

اعتذر سراج ، فقطبت جبيني وهددته : هل أخبره بزيارة الصباح ؟

رفع يده مستسلماً . وبعد شرب المثلج ، انكب البوطسي على عمله ، بعد أن أشعل عودين من بخور الجاوي .

فشعرت أنني في معبد فرعوني داخله بعض الأسطوات، وثلاثة عساكر من الأخصائي !!!

شمال . . يمين

كان الولد عبد المعطي ضاحي مصاباً بالتهاب اللوزتين منذ زمن طويل، لهذا كانت تتناوبه الحمى في فترات متباعدة ، وما يلبث أن يخف ويشفى .

لكن بطرس رأى أن يغتنم الفرصة هذه المرة فيصحبه إلى المستشفى ، كي يمتع البصر برؤية البنات الجميلات أثناء العرض على الطبيب الميري .

خلع عبد المعطي سترته بعد أن تمدد على السرير الحديدي ذي العجل ، والملاصق للحائط الأبيض بياض اللبن الحليب. وضع الطبيب سماعته على الجزء الأيسر من الصدر ، ملاصقاً الثدي الضامر بحلمته المصوصة . ونقر بأصبعه على العظام .

كح بطرس وهو يتابع أصابع الطبيب المدربة ، وقال في سره : الموضوع دخل في الجد .

أنام الطبيب مريضه على بطنه ، وطلب منه أن يأخذ وضع القرفصاء ، ثم أمره أن يأخذ شهيقاً طويلاً ثم يخرجه على دفعات وأن يقول : آه .

فعل عبد المعطي كل ما طلبه منه الطبيب ، الذي تعجب من دخوله الخدمة رغم العيب الواضح في أهم مضخة بالصدر : القلب .

كانت الالتهابات المتوالية للوزتين ، بإفرازاتها الصديدية قد أثرت على القلب ، فضاق صمامه . شعر بطرس بالعرق يتفصد على جبين زميله الذي رافقه إلى المستشفى ، وظن الأمر نزهة ، وساعة حظ لا تعوض ، فإذا بها تنقلب غماً .

فقد رأى الطبيب أن يحجز عبد المعطي للفحوص والعرض على الإخصائي الزائر كل ثلاثاء . ووقع على الأورنيك بالحجز . ودفع بالورقة

الصغيرة بحجم الكف لبطرس الذي كان عليه أن يعود بمفرده .

قبل أن ينصرف ، مال على أذن زميله : أتريد نقوداً ؟

هز المحتجز رأسه بالإيجاب ، فدس السائل جنيهين في اليد الممدودة ترتجف . وقبل أن يمضي خارج عنبر الحميات ، احتضنه سريعاً ، وشعر بسخونة أطرافه وجبهته .

كان على بطرس أن يمضي ساعتين أو أكثر في شوارع المعادي ، ولم تكن معه نقود كافية ، ولا مزاج رائق للفرجة على خلق الله .

بالصدفة ، وقعت عيناه على البوطسي يمرق من أمام مقهى فقير كان يجلس على أحد مقاعده ، ناداه بصوت عال ، فلم يلتفت . فز من مجلسه ، وراح يعدو حتى لحق به : يابوطسي . . عبد المعطي تم حجزه في المستشفى .

التفت الآخر نحوه . كان له نفس الوجه ، لكن العينين المحملقتين ليست بنفس الصفاء الذي يعرفه .

لا يعرف لماذا أخرج من جيب بنطاله علبة سجائره ، وأعطاه واحدة، ربما ظن أنها حيلة منه للحصول على شيء .

لكنه ليس شحاذاً ، ولم يمد يده يوماً مهماً كان الأمر صعباً .

دعك بيده السيجارة ، فانفرطت حبات التبغ على الأرض الأسفلتية . وعاد إلى مقعده الواطئ ، وأدار صاحب المقهى مؤشر الراديو على محطة تذيع أغنية يحبها .

كان عبد الوهاب يعدل طربوشه – هكذا تصور الأمر – وهو يغني : " يا وابور قولي ، رايح على فين ؟ "

فراح يغني معه ، وخرجت أسراب البنات ضاحكات ، منطلقات وكأنهن لا يعرفن الحزن أبداً .

فكر في أن هؤلاء البنات ،سيتزوجن ، وسينجبن أطفالاً : بنات وبنين ، البنون سيدخلون الجيش ، وبعد عمر طويل ، سيجلسون جلسته .

شارد الذهن ، صامت ، تضيق عيناه بتأمل الفضاء الذي أخذ لوناً رصاصياً . لم يكن عبد المعطي ضاحي صديقه القريب إلى قلبه ، لكن مصادفة ما ، ورغبة في الخروج من القشلاق جعلته يصاحبه إلى

المستشفى، وبدلاً من أن يعود معه ، يعود فقط بقطعة من الورق عليها اسمه ، ورتبته ، ورقمه العسكري .

سيرتاح عبد المعطي ضاحي من " شمال يمين " التي تعصف بالأرواح، فتثير الضيق لرتابتها في طوابير الصباح .

وقع نظره على البيادة بحجمها الكبير ، بفظاظة دورانها المميت ، وقسوة جلدها . وسأل نفسه : هل كان هو البوطسي حقاً ؟

مد يده لكوب الشاي فأبصر جلده الذي دبغته شمس لا ترحم . ورأى أن العنبر الذي سكن فيه زميله أفضل مائة مرة من خيام وملاجئ القشلاق .

صحيح أن رائحة " اليزول " ما زالت في أنفه ، لكن كل مريض عليه أن يتعود الروائح الجديدة ، والألوان المختلفة ، وشعر بصوت الصول يردد " شمال يمين " ، فهب واقفاً ، كالملدوغ ، وسرعان ما أدرك أن سحابة حزن عابرة هي التي أوقعته في المحذور ، وأرهقت عقله .

فأسراب البنات لا تتقطع عن المرور من أمامه . كلهن فتيات جميلات ، بالشعر المقصوص أو ذيل الحصان ، وكل طراوة الدنيا ، وروعتها تظهر في ابتسامتهن المرحة .

وما لبثت مدرسة الصغار أن فتحت أبوابها ، وحدثت جلبة مع الأقدام الصغيرة المتدافعة التي تسابق العفار ، كأن عصافير ملونة انطلقت من أقفاصها .

شعر بأن الحبس أمر مهين للبشر ، وكاد يبكي وهو يستسلم لصوت غامض يغزو وحدته : " شمال يمين " ، لم يكن هناك مفر من أن ينظر إلى ساعته ، ويدفع بالحساب إلى صاحب المقهى العجوز الذي عاد يفتش في الراديو عن أغنية أخرى . كالمنوم ، جر قدميه في اتجاه المحطة ، تعلق بصره بالسماء التي كانت تجاهد لتتخلص من السحب الرمادية فيخلص لها الأزرق لوناً ورحابة .

" شمال يمين " ، تترى كسوط يعذبه ، ولم يجد بطرس مفراً من أن يصعد إلى الأتوبيس المار بالقشلاق ، ليعود وحده ، كي يواصل مشواره الصعب مع زملاء قدر لهم أن يحملوا في قلوبهم ثقل السماوات الرصاصية !



القســم الثالث

تأملات شاردة عن الجبهة



فــرد يمـــام

لا أحد رأى يمامة في الصحراء . لا أحد رآها من قبل أو من بعد في هذا المكان المقطوع الموحش ، المليء بالأحجار المتناثرة دون ترتيب أو نظام ، والعشب القزمي من فصائل الصبار .

هبطت دون سابق إنذار على ماسورة مدفع الـ م / ط ، ما كادت أصابعها الدقيقة تلمس الحديد الساخن حتى طارت من جديد ، راحت تضرب الفضاء القريب بجناحين مجهدين ، ثم سقطت في حفرة الموقع التبادلي لنفس الطراز من المدفع .

يمامة في الموقع ، حادث فريد ، خاصة في ساعة القيلولة حيث يخلد الجميع إلى الراحة ما عدا أفراد النوبتجية .

في ذات اللحظة اندفع العساكر نحو الحفرة ، صنعوا من أجسادهم شبكة ترتطم بها المسكينة في محاولتها المستميتة للفرار . رفرفة الجناحين أسقط ريش ناعم كثير ، بلون أبيض يميل إلى البني . ريش يدور في قلب دوامات الريح المثقلة بذرات الرمل الأصفر الساخن .

نجح العسكري حلمي في القبض على اليمامة ، رحنا نتأملها صامتين وهي تلتفت في حيرة يمنة ويسرة ، وكأنها أدركت الفخ الذي وقعت فيه ، ثم ما لبثت أن استكانت ، وأغلقت الجفنين في استسلام ائس .

كلنا ، رغم مشاركتنا في المطاردة المستحيلة منذ لحظات ، وقعنا

في مأزق ، عبر عنه العسكري عبد الحي ياقوت ، وهو يتساءل في مرارة : ماذا سنفعل بها ؟

كانت دوامات الغبار تتصاعد لتحيط بالجمع الذي خرج من الحفرة في اتجاه أرض السرية .

قال حلمي ، وهو يمارس عناده المعروف عنه : هي لي . وأنا صاحب التصرف !

مط الجميع شفتيه ، وتحركت اليمامة حركة يائسة ، فسقط مزيداً من الريش القصير ، وبان الزغب الخفيف حول سمانة القدم فيما صرخ العسكري متولي : إنها عطشى .

أسرعنا إلى الملاجئ في نفس اللحظة وقد أحضر كل منا زمزميته ، وأمالها ، وصب الماء القليل في الغطاء المستدير .

اقترب عبد الحي ياقوت من حلمي ، وراح يمسد شعرها بالماء البارد الذي ملأ به قبضته .

انتفضت اليمامة وقطرات الماء تغمرها ، وتصل إلى منابت الزغب حول عنقها الجميل . وما لبث أن هدأت . أغمضت العينين للحظة ، وكأنها في مرحلة الإفاقة ، راحت تنفض ريشها المبلول ، في انتعاش حقيقي وسط صهد لا يرحم .

حملها ياقوت في حنان بالغ ، فرد المشمع على أرضية الملجأ ، ثم أراحها . صاح حلمي غاضباً : احترس . ستطير .

لكنها استكانت ، وراحت تنفش ريشها ، وتطويه ، في حركات متعاقبة .

سأل العسكري متولي : حد عنده ذرة عويجة ؟

ضربه مرسي الشحط ، أطول أفراد السرية طولاً ، والذي اختفى لقبه الحقيقي وراء اسمه الحركي ، شخط فيه : يا غبي .

جرى إلى ملجأه ، وعاد بقطعة خبز من جراية الصباح ، راح يبللها بحرص زائد ، حتى امتصت الماء ، وانتفشت . قربها من اليمامة التي غمست منقارها فيه ، ثم عافت الطعام .

دخل صبري المنير الملجأ بعد انتهاء نوبته ، قال : إن التعيين في

الطريق . لقد رأيت السيارة قادمة على المدق الجيري القديم .

صحنا في نفس واحد : حلو . وقال العسكري حلمي : ممنوع فعل أي شيء إلا بأمري .

سألته : ماذا تقصد ؟

رد بعنجهية : اليمامة ملكي . وأنا الذي أطعمها وأسقيها.

خبطه عبد الحي ياقوت على كتفه ، حتى كاد يسقطه: أصمت يا جاهل . هذه روح . والروح ملك ربنا .

مصمصت الشفاه . كنا جميعاً ، ودون اتفاق بيننا نخشى أن تموت في هذا الهجير . ولم نكن على يقين من صحة ما فعلناه ، حين طاردناها ساعة سقوطها في الموقع .

جاءت العربة تتهادى ، سمعنا صوت الصول الأجش : إحضر للتعيين . رأينا العفار الذي يسبق السيارة ، وقف حكمدارية الجماعات بأرونات السرايا . وسألنا عن التعيين في صوت مجهد ، وعرفنا أن هناك أرز ، ويمك ، وقطع صغيرة من اللحم . أما الفاكهة ، فبيانها كالآتي : كل خمسة أفراد يخصهم حبة واحدة من البرتقال .

تم توزع التعيين بسرعة فائقة ، وتصاعدت الأبخرة الشهية ، وتلمظت الألسنة ، ورطبت الشفاه ، وصنعنا داخل الملجأ حلقة الغداء المعهودة .

كنا جوعى كما لم يحدث لنا من قبل . إلا أن أيدينا لم تمتد لطعام قبل أن نطمئن على غذاء اليمامة . كانت ترقد هادئة كأنها مثلنا في نوبة راحة .

كل يمسد شعرها الناعم الجميل ، فتسري في روحه نسائم منعشة ، وهي من وقت لآخر تفتح العينين الجميلتين لتطمئن على شيء ضائع أو مفقود .

مد العسكري متولي يده ببعض حبيبات الأرز ، لكنها نفرت ، وابتعدت بجسمها . اقترب منها عبد الحي ياقوت ، وراح يصنع بفمه هديلاً عجيباً ، انتبهت للحظة ثم أغمضت عينيها في عزوف واضح عن أي طعام .

صاح العسكري مرسي الشحط : الصول زعفراني في الطريق .

دون أي اتفاق نهضنا جميعاً ، خرجنا من فم الملجأ ، وأيدينا تحيط باليمامة . أطلقناها ، في الجو الصهد اللافح . أطلقناها طارت قليلاً ثم هوت .

صنعنا بأيدينا مراوح ، رحنا نمسح حبات الرمل عن الجسد المنهك ، والعفريت عبد الحي ياقوت . كاد يبكي وهو يهمس في صوت ينضح بالبكاء : بالله عليك طيري .

ثم رشف قطرات من الماء ، وبخ رذاذاً للحظات من فمه الواسع : طيري . . أمانة عليك .

ارتعش الجسد الساخن في أيدينا ، واستجمعت اليمامة قوتها ، نفضت الماء ، وانتفضت ، وحين أطلقها عبد الحي ، طارت هذه المرة طيراناً متواصلاً ، ومضت نحو المدينة البعيدة ، فيما لاحظت دموعاً تترقرق في أعين العساكر الغلابة .

شَعْرة

- العسكري مصيلحي عنده شعرة .
- لا . ما حدث هو مجرد " لُطف " .
- هذا الولد العاقل ، كيف طقت دماغه ؟

هكذا ارتفعت الأصوات وقت الدجى ، فوقفت أهرش رأسي ، لأنني أعرف العسكري توفيق مصيلحي أكثر من غيري .

حكى لي شيئاً عن عائلته الكبيرة في " أبو كبير " ، ومحل الجزارة الواسع الذي يمتلكه أبوه - الحاج أحمد - مع عدة مخازن .

كان أحمر الوجه ، يكاد الدم يتفجر من وجهه البشوش في صحة وعافية . في البداية لم أسترح له ، لفكرة راسخة في ذهني عن الجزارين . فدائماً يكونون قساة القلب ، متبلدي المشاعر . لكن موقفاً صغيراً ، ربما كان عابراً ، مر بنا في إحدى مشاويرنا لإحضار سواتر من قلب الكتيبة ، غيرني تماماً .

كنا ملحقين على سرية الهاون ، وأمرنا الصول درويش أن نسارع باستخراج الغلالات من حفرة الذخيرة ، فلما أنجزنا ما طلب . أشار بيده وكأنه يطرد حشرات بعيداً عنه ، كي نذهب لنحضر سواتر الصلب المقوسة من مركز قيادة الكتيبة على بعد تسعة كيلومترات .

في البداية سرنا صامتين ، نمسح عرقنا في المناديل الميري الكاكي تارة ، وفي أكمام الأفرولات تارة أخرى ، ننفخ بأفواهنا زفيراً حاراً محملاً بالتعب والإرهاق .

فجأة ، ضم أصابع يده اليسرى ، وراح يهزها لأسفل وأعلى في هدوء ولطف . ثم مال على جانب الطريق ليحمل جرواً صغيراً كان يبدو أنه في الأسابيع الأولى بعد مولده .

راح يلهو معه ، وينظر حوله في بحث دؤوب عن شيء لم يخبرني به .

ثم ضم شفتيه ، وراح يصدر بفمه صفيراً متقطعاً ، وفي التو قفز كلب كبير ، أسود اللون ، في مفاجأة لي ، وراح ينظر نحو مصيلحي نظرات كلها شك وريبة ، وما لبث أن خفف من نظراته العدائية ، حين لمح يده تتحسس شعر الجرو في حنان فريد . أخذتني المفاجأة حين راح الكلب يتمسح في ساق رفيق رحلتي ، وكأنه يعتذر له عن تسرعه وفهمه الخاطئ.

بعد أن ابتعدنا ، سألته عن علاقته بالكلاب ، رد بعفوية : كل الحيوانات أصحابي ، أعرف كيف أتعامل معهم ، أما البشر فالتعامل معهم صعب صعب .

بعد أن تقوست ظهورنا بالسواتر الصلب حال عودتنا ، توثقت علاقتي به . صرت أعز أصحابه . وانكشفت لي مناطقه الدفينة ، فإذا مصيلحي – الجزار بيده الخشنة – أرق أفراد السرية مشاعراً ، حتى أنني كنت أختار سريره ، لأقرأ خطابات سهير التي ترسلها ، وعلى المظروف الخاتم الأسود المربع بالرقم الكودي ، دون أن أخشى ترقرق عينيّ بالدموع . وهو – وبلمحة ذكاء نادرة – كان يشغل نفسه بتنظيف سلاحه الآلي دون أن يسألني عن سر تلك الدموع .

هل من الممكن لمصيلحي أن يصاب بلوثة جنون ؟ سألت العريف حامد أبو طويلة – وقد غاب عني لقبه الحقيقي – فعرفت أنه خرج من مكتب الملازم يسري ، وجرى في الفناء ، فأحضر حجارة " الدبش " وراح يقذفها نحوه . فلما أمسكوا به راح يغني ويرقص أغنية عبد الحليم " بيع قلبك . . بيع ودك شوف الشاري مين ؟ " ثم يتوقف قليلاً ، ليؤدي التحية العسكرية – كما أُنزلت – ويعود الهتاف باسم الكتيبة ثم يخرج " زرطة " طويلة بذيل ماجن .

صاح الملازم في غضب : ضعوه في الحبس .

فشخر شخرة مدوية ، قبل أن يرفع يده اليمنى بسلام قائد عظيم متبوعة بهزة وسط لا يمكن أن تكون إلا لراقصة محترفة .

في قشلاق الحبس زرت مصيلحي ، قدمت له علبة سجائر ، وقطعتين من الملبن ، ومشط كبريت . نظر إلى الخلاء طويلاً ، زفر وهو يصرخ : أوباش .

قلت له : احترس يا مصيلحي . ولا تمض في الأمر أكثر من هذا .

شملني بنظرة عطف ، وربت على كتفي : أوغاد . قلت لك .

أحمر وجهه أكثر من احمراره العادي . سألته عما حدث، هز رأسه ، وهو يتلفت حوله : لا شيء . أريد الجاموسة .

قلت له في صدق وأنا أحتضن يديه : خفف عنك . أحك لي .

ظل صامتاً ، وما لبث أن سألني : هل ترضى أن تمسح حذاء إنسان مثلك ؟

قلت له معترضاً : بالطبع لا . لكن عساكر المراسلة يفعلون .

شخر مرة أخرى : لكن أنا لا .

همس في أذني ، وأكد لي بإشارة من أصابعه : أنا رجل .

وضحك في مرارة : شعرة جاءت . ماذا جرى ؟

قلت أنصحه : الجنون يبدأ من لحظة مثل هذه . أن تضرب في طريق تجهله . حيث يحتل اللامعقول مكان المعقول ، وحين يخدش الضحك قشرة الحزن الصلدة . أرجوك لا تضحك . لا ترقص . أبك . أبك في حضوري . لا تخش شيئاً .

دقت قبضة العريف المناوب الباب الصاج : هيا ، يا دفعة؟!

قلت : هي دقائق .

اندفع مصيلحي يرقص ، وهو يدق على أروانة الفرد الألمونيوم : الجاموسة نامت . والعقارب قامت . ثم خطف كتاب كان بيدي ، وصنع منه بوقاً ، وصاح بصوت جهوري :

حيوا الجاموسة . . هيه . . هيه . . هيه .

أغلق العريف الباب مرة أخرى ، واستمر مصيلحي في جلبته ، حتى ظننت أنه سيغشى عليه . توقف فجأة ، لمحت صدره تحت السترة الكاكي يعلو ويهبط . أجلسته إلى جواري على الأرض الرملية الخشنة : أرجوك يا مصيلحي . تماسك . كلها ثلاثة أعوام ، وتخرج .

فوجئت به يهدأ ، ويتملى وجهي . في تلك اللحظة تذكرت أنه لا بد من كلام يقال . ولا أعرف كيف أوجه دفة الحديث .

سألته : كان من الممكن أن ترفض بهدوء .

رد بعصبية : أراده أمراً صريحاً .

هززت رأسي : من الممكن أن تتظلم . حاول !؟

أدهشني رده : فكرت في هذا . وأردت أن يكون ردي مدوياً .

قلت له بإخلاص : عرفت أنك ستذهب بأورنيك العيادة إلى المستشفى العسكري .

رد في ضيق : لا يهم . سأستمر في جنوني .

طاف بذهني خاطر عجيب ، سألته : هل كنت تذبح الماشية بيدك؟

ثبت عينيه في عيني : مصيلحي لا يذبح أحداً . أبي الحاج أحمد حاول معي كثيراً ولم تفلح محاولاته .

دق العريف الباب بغلظة هذه المرة ، شملني بنظرة ماكرة : اطلع بالمطلوب .

مددت يدي بسيجارتين . وبجرأة متناهية خطف علبة الكبريت . وضحك وهو يغمز بعينه اليسرى : صاحبك شعرته عالية .

قلت لمصيلحي : لا تخف ، سأذهب معك وقت العرض على المستشفى العسكري . سأتحدث مع صول السرية الطبية في الأمر .

في هذه المرة علا صوت مصيلحي – الجزار في بطاقته الشخصية – بأغنية جميلة لعبد الحليم حافظ :

" صافيني مرة ، وجافيني مرة "

ضحكت وأنا أتركه حليق الرأس ، وبدون طاقيته الميري غمز بعينه : مع السلامة !

علمت بعد ذلك أن المستشفى العسكري قد احتجز مصيلحي للعرض على طبيب زائر متخصص في هذا النوع من الأمراض العصبية . وقد خضع لفحص سريري دقيق، وأثبتت التقارير الطبية أنه قد تعرض لضغط نفسي عنيف أدى لاختلال بعض وظائف المخ .

وحينما عاد إلى السرية ، سُمح له بارتداء حذاء خفيف ومعافاة من الطوابير ، لمدة شهر . لكن لا أحد صار يمكنه إيقافه عن الغناء ، " والزراط " بفمه وقتما شاء ، حيث أن صوراً من التقارير الطبية ، محفوظة بترتيب دقيق داخل حافظته الجلدية .

عربـون محـــبة

راحت الشاه تمسح خطمها في الحشائش الكثيفة الملاصقة لبئر الماء الوحيد في المنطقة . كانت خيام البدو متناثرة هنا ، وهناك ، والفتيات يأتين إلى البئر لملء أوعيتهن البلاستيكية ، وجرارهن المميزة .

وأصبح رزق هو المندوب السامي لسريتنا لهؤلاء البدو ، لقد بدأت المقايضة ببساطة متناهية ، فالجراية الزائدة يمكن مبادلتها بالدحروج ، وهو اسم بيض الدجاج ، وغير ذلك عيب .

كذلك فإن قطع الصابون ، وبالأخص صابون الرائحة يثمن غالياً ، ويمكن الحصول في مقابله على " قسط " لبن كامل.

البدو في حالهم ، ونحن أيضاً – باستثناء رزق – في حالنا ، شركاء في الماء والكلأ ، ومساحات الأصفر العنيد .

نقطة الدفرسوار على بعد ثلاثة كيلو مترات ، والحسرة تنهش الصدور ، حيث لم نتكيف بعد مع المكان . هو يختلف تماماً عن الأساس ، والأخصائي ، تكفي أشجار المانجو بثمارها اللذيذة التي تخضع لقانون نيوتن في الجاذبية الأرضية .

لكن " رضا " لها جاذبيتها الخاصة وقد خطفت قلب رزق ، لذلك يصر على أن يملأ الجراكن بمفرده ، ويتحمل السير لأكثر من كيلو متر ، والثقل على كتفه ، من أجل نظرة واحدة ، تظللها رموش تخطف القلب .

لقد حظى بثقتهم تماماً ، فقد كان هاشا باشا في المقايضة ، لا يهمه الخسارة البسيطة من أجل بناء جسور ثقة مع العشيرة .

وكلما رأت أحدنا خفضت نظراتها ، وأسدلت رموشها ، ولم تنبس بكلمة .

وحده رزق هو الذي تحدث معها ، كانت تأنف من مخاطبة العساكر ، لأنهم لا يؤتمنون . وقد أكد لها رزق ذلك، وراح يهز رأسه هزات متتالية من أعلى لأسفل : فاسدون . دون ..

كان التعيين اليوم يحوي مكرونة مقصوصة لم تنضج بعد ، حتى صلصة الطماطم لا يكاد المرء يعثر لها على لون أو رائحة ، لذلك استقر الرأي على مقايضة التعيين كله . وغاب رزق ، وتوجسنا شراً أن تكون المهمة قد فشلت .

لذلك رأينا أن نرسل من يستعجله ، فقد مر الوقت ، وزقزقت عصافير بطوننا ، وكنا قد أشعلنا العبوات المساعدة بعد أن أخفيناها فترة تحت الحشائش اليابسة ، ووضعنا أروانة الجماعة وقد امتلأت بالماء ، ليغلي ، انتظاراً لعودة رزق بالدحروج .

ذهب مفيد يستطلع الأمر ، وتسلل إلى مضارب العشيرة ، ربما تكون هناك حالة من الرفض لطعام لا يستسغيه البدو . هكذا ظننا الأمر . وعشنا في قلق متزايد غزاه الجوع الكافر .

وعاد مفيد بعد دقائق بوجه محتقن ، سألناه : خير .

أبو طويلة ضرب الأرض بقدميه : ماذا حدث له ؟

ضحك في مرارة : إنه في مأدبة حافلة . يجلس مع النسوة يقضم البصل الأخضر ، وينهش صدر دجاجة مطهية .

تلفتنا حولنا ، وكلنا حيرة : والدحروج ؟

امتقع وجه مفيد أكثر وهو يعترف : اقتربت منه ، وسألته عن طعامنا .

سألناه في صوت واحد هده الجوع : وماذا قال ؟

مضغ مفيد حسرته : أشاح لي بيده . وهو يواصل التهام الفصوص البيضاء بشهية ونهم . وقال :

اذهب ، سأحضر وراءك .

سأله أبو طويلة : ألم يقل لك تفضل ؟!

سرى الغيظ في صوته المبحوح : والله ما قالها . هو يأكل برضا وانشراح . ونحن نموت من الجوع .

قال الصول درويش وهو يتوعده :سيكون لنا حساب معه.

وقبل أن يكمل الصول عبارته ، جاء العسكري رزق بسلة كبيرة امتلأت بالبيض من كل شكل ولون .

وقبل أن نـدب أصابعنا في عينيه المحملقتين ، قال يقطع علينا الطريق للومه : اضطررت للأكل معهم . وإلا كان في الرفض عار لا يُمحى .

خبط مفيد كتفه : إلعب غيرها . . يا نمس .

قال يدفع عنه اتهاماً أكيداً : أنتم الذين أرسلتموني . وكل ما حصلت عليه نصف دجاجة .

شهق أبو طويلة كالمعذب : نصف دجاجة . . يا حفيظ .

ولم يكن هناك وقت للحديث أكثر من هذا ، فقد امتدت أيدينا لتضع البيض في الإناء الذي تقطعت مياهه من الغليان .

كما لم يكن الوقت مناسباً لوجع الدماغ ، وخلع رزق من مهمته التي تعود عليها . إلا أنه حين خلا بالصول درويش دس في يده قطعتين من اللحم : كبده و قنصة .

رأينا كل شيء ، فقد كانت رشوة مفضوحة . وقبل أن نغلق قطع ألسنتنا برشوة جماعية : الشاي كشري ، على حسابي لكم جميعاً .

خرج مفيد عن صمته ، وهو الذي رأى المأدبة ، ولم يدع إليها ، خبط على كتفه محتجاً : نحن لا نباع ولا نشترى .

كانت أشجار المانجو تبدو محترقة من أثر القصف في حرب لم يمر عليها عام واحد .

وكانت رضا قد اقتربت من نطاق السرية وقد حملت شاه صغيرة ، قربتها من صدرها ، راحت تثغو ، وهي تهدهدها . أومأت لرزق أن يأتي ، ولم نسمع ما نطقت به ، فقد كانت تضع الشال الأزرق على فمها . لكنه حمل الشاه ، وعاد بها إلينا . لقد صعقنا بالموقف ، وتجمدنا للحظات ، ثم انطلقنا جميعاً ، نرفع رزق فوق الأعناق ونهتف للأسود ابن الطالبية بطول العمر . حتى أنه قد خجل ، وراح يتمتم لنفسه بكلمات مبهمة ، فيما استعد الجميع للوليمة المعجزة .

الأعمال بالنيات

في فايد ، علمنا المكان بالفلنكات المترامية بلا نظام على جانبي الطريق . محطة القطار في الجانب الشرقي من الطريق الأسفلتي . تعبر الكوبري الخشبي العتيق ، ثم تواجهك أشجار السيسبان التي تدلي شعورها خجلاً في الترعة النحيلة التي لها لون رمادي غريب . إلى الجوار يقبع الكافور ، أشجار عجوزة بعمر الحزن ، كأنها كائنات انقرضت من عصور سحيقة بائدة .

العساكر في كل مكان . اللون الكاكي يسود المحطة والأرصفة ، والأزقة الضيقة ، ويحتل معظم مقاعد القش الواطئة في المقاهي الفقيرة ، التي عجزت عن استيعاب كل هذا الحشد ، فاستعانوا بالجراكن البيضاء بعد أن مالوا ، وملئوا فراغها بقش الأرز .

في المحطة الفقيرة مقعد أو اثنان بلا مساند . وحجرة ناظر المحطة الرثة ، لها باب خشبي صغير ، مغلق في معظم الأحيان . وفي ظل العواميد ، والسيما فورات ، بعض دجاج ينبش التراب ، واليوم جمعة .

فكر عبد العظيم أن يحتسي شاياً ، وأن يقطع الوقت بالنظر في وجوه البنات المتفجرة بالصحة والسعادة الخفية التي لا يوجد لها أي سبب ، سوى الأمل في أيام قادمة أقل مسغبة .

فتيات بملابس محتشمة ، وطوق الصدر مفتوح بحساب حيث الدانتيلا العريض تسرب قليلاً من البهجة .

يصر على أن يمتص تفل الشاي ، ونحن نصفه بأنه شخص دون ،

فيرفع يده معترضاً : حتى الثمالة الأخيرة .

البنات يسرن في دلال ، والعساكر يكتمون مشاعرهم ، ويكتفون بنظرات حذرة ، ويتهافتون على البنت (محاسن) بائعة التين الشوكي ، وهي تنقي الحبة وراء الحبة ، فتقشرها في دربة وصنعة . وترفع يدها باللحم اللذيذ الممتلئ بالبذور والعصير الحلو ، وتغني : " خمسة بربع جنيه " .

في اتجاههن إلى السوق تسير البنات ، وأجسادهن التي تخفي رغبات دفينة ، تكتفي بإيماءات سرية ، وترفض عيونهن — في ارتياب مرير — أي محاولة للتسليم بالأمر الواقع . ينزلق عبد العظيم بمقعده العتيق ، وعينه التي تندب فيها رصاصة — اليمنى على الأرجح — ترسل نحو السرب المحظور الاقتراب منه وميضاً قاتلاً .

صلاة الجمعة على الأبواب ، لأن الحصر المطوية في أركان الجامع ، يتم فردها في نظام بديع ، والعساكر لن يقلعوا بياداتهم حتى يعلو صوت المؤذن : قد قامت الصلاة .

لذلك فقد أفتى الزرقاوي أن العساكر مهما فعلوا من خير فهم في الدرك الأسفل من النار .

سمع عبد العظيم الفتوى ، فأشاح بيده معترضاً : ألسنا في نار الجيش ، وهي — والعياذ بالله — مثل نار جهنم ؟

كاد خيري الزرقاوي يطبق عليه بيديه فيخنقه ، إلا أن جحوظ عينيه قبل أن يقدم على مشروع الخنق ، جعله يتراجع وهو يؤكد أن أفراد الكتيبة كلهم سيكونون من حشو النار بينما الفرقة الناجية وحدها ستكون على الأرائك .

لم يعترض عبد العظيم هذه المرة على كلام الزرقاوي ، وأخذتها من قصيرها ، وفرد طوله ، وقال له وهو يتمطى : الأعمال بالنيات !

وجدناها . الحلقة المفقودة التي طالما بحثنا عنها في ليل الملاجئ ، وعتمة الخدمة الشاقة ، حتى أنني أكملت العبارة في خشوع لا أعرف كيف استولى عليّ : ولكل امرئ ما نوى .

في هذه اللحظة بالضبط ، وقبل أن أضع النقطة الأخيرة على نهاية

جملتي ، كهسيس صمت في زحمة المكان ، جرى ما يمكن اعتباره أمراً من أمور (الخانكة) ، وإليكم التفصيل :

كان عبد العظيم يهم بمغادرة المقهى ، وصوت الواعظ يلعلع في مكبر الصوت ، والبنت محاسن هناك لا تكف عن الشخط والنطر في عساكر أعينهم زائغة .

فجأة عبرت أمامنا بنت صغيرة تسوق قطيعاً من الجاموس ، وفي نهاية ذلك القطيع كان الأب يهش الجاموسات النافرات ، والمتلكئات . عفار يعلو في المكان كله ، فيطوقنا ويزيد إحساسنا بالاختناق .

رأيناه يفز من مجلسه ، ويمضي في أثر القطيع ، وعلى بعد خطوات قليلة من الأب الذي راح يحلق يمنة ويسرة على جاموسة شاردة ، راحت تقتلع عيدان برسيم من سيارة ركنها سائقها بجوار الطوار الأيمن .

تتبعناه بنظرنا ونحن نتعجب . هذا عبد العظيم الفلاح ابن الفلاح لماذا تركنا وذهب وراء القطيع ؟

لم تطل دهشتنا ، فقد أنزل الأب جاموسه ليستحم في الترعة ، زغرت البنت للعسكري عبد العظيم . وهو يقترب من ثروتها ، ويتأملها في وله عجيب .

وسرعان ما خلع سترته ، وفك أربطة البيادة الثقيلة ، وبنطلونه الميري ، وفانلته الداخلية ، ونط في الترعة ، وهو يغطس ، ويقب ، ثم يقترب من جاموسة عظيمة اللحم والشحم ، فيطبع على رقبتها المشدودة قبلة حرنا في وصفها .

وقف خيري الزرقاوي ، وقد نفرت عروقه ، وهو يشير للعسكري الذي عاد إلى طفولته مرحاً ، يغطس غطسات عجيبة ، نعتقد مع طول غيابه أنه قد مات وفطس ، قال بصوت متحشرج : النذل . . الفاسق .

قال له رزق وكان صامتاً طول الوقت : إنك الجاهل هذا شيء لا تعرفه .

وصحنا في وجهه معترضين : ثم إنّ الأعمال بالنيات !

الدفرسوار

الدفرسوار اسم له رنين عجيب . الحضن الذي تلقاني فور الخروج من فرقة الأخصائي . طوال الطريق إلى موقع قيادة الكتيبة تقابلك دشم مهدمة ، دبابات معطوبة ، إطارات سيارات عسكرية ، حفر ردمتها رياح أشهر منصرمة ، ثم كمية لا يستهان بها من سجائر العسكر اليهود ، فقد مروا من هنا . انحنيت لألتقط علبة سجائر دبغتها الشمس ، وحولت زهزهة الغلاف إلى انطفاء منكسر ، وقرأت بالانجليزية : " **TIME** " . قلت في سري مترجماً : الوقت أو الزمن ، ثم قلبت العلبة لأتأمل الأحرف العبرية المربعة ، وأوجعني قلبي حين رأيت منزل قد تهدم تماماً بالقرب من قرية " أبو عطوة " .

الدفرسوار ، حيث مسطح الأزرق الساطع مع مساحات الخضرة الحنونة ، وما يلبث الأصفر العنيد أن يواجهك ، بكل جبروته وغطرسته .

في الدفرسوار ، سيمكنك أن تصبح جندياً كاملاً ، ولن تزحف رمال الموقع في السادسة صباحاً ، سيكون من حقك أن تتفنن في إيجاد سرير لك مع طاقمك .

وستعثر على من يساعدك ، ويضع بين يديك أول كوب شاي مصنوع بمزاج ، فإن كنت تدخن ، فلك الحق في سيجارة وثانية ، أما الثالثة فبحسابها . فكل شيء هنا يسير في دقة ، بلا عواطف زائدة ، وأيضاً بلا قسوة متعمدة .

هذه قلوب ألانتها الحرب ، ورققتها الدماء الذكية التي تشربتها

رمال لا تظمأ . كنت طيلة عمري أحب الأزرق بدرجاته، ثم يأتي الأخضر على استحياء ، وأكره الأسود بلا حدود : كنذير موت ، ثوب حداد ، ظلام دامس .

بقية الألوان كانت محايدة . الأصفر لا يمثل لدي أي شيء ، مثله مثل البني والرمادي والرصاصي . لكن أيام الخدمة الأولى جعلتني أضع الأصفر في مرتبة العدو . فيه قسوة لا تحد ، وغطرسة لا يمكن تصورها . الصحراء الخرساء لا يتكيف معها إلا السحالي والحرباء ، والبدو .

لا أشعر بعنصرية من أي نوع ، لكنها لعبة الألوان معي . ولقد نسيت أن أقول بكل ثقة أن الأحمر كان يثير حنقي ، فهو الدم المسكوب ، وهو أيضاً عرف الديك الرومي ، وأوداجه التي تنتفخ بمجرد أن تصدر له صفيراً من فمك ، فينفش ريشه كمروحة ، وتسمعها مدوية : كركر . . كركر . . كركر .

في الدفرسوار ، أشجار مانجو عملاقة ، اللحاء غليظ ، وعليه أسماء عساكر ماتوا ، وآخرين جرحوا ، ومعظم أفراد السرية لهم أسماء بديلة رصعوا بها الجذوع . أما أشجار التوت اللذيذ فهي تكتظ بالثمار السوداء ، والحمراء في بذخ لا يمكن وصفه .

آه . . في هذه التبة الصغيرة ، التبة التي تبعد مائتي متراً عن ملجأ طاقمي تم طحن عظام جماعة مشاة ، ودفنت الأشلاء في حفرة عميقة . ونبتت شجرة نبق لم يجرؤ جندي مهما بلغ جنونه أن يأكل منها . كانت حبات النبق تميل إلى الحمرة ، وتسقط بمجرد النضوج ، فيمر عليها العساكر ، يقرأون الفاتحة ، وهم يبتعدون عنها بمسافة كافية .

في أول ليلة من الخدمة سمعت الهمهمات المكتومة ، والصرخات المذبوحة ، كان ثمة ارتطام لأصوات كأنها قادمة من زمن مضى ، والكلمات قد طمسها البلى .

تداخلت في ذاتي ، أحكمت إغلاق الزُنط حول أذني ، وأمسكت بسلاحي الآلي . تسرب إلى نفسي شك قاتل في أنني أحلم ، وأنني لم أمر بطوابير الاصطفاف اليومي . لكن السماء كانت صافية ، والنجوم ترسل أشعتها بتحد لا يوصف . قرصت يدي من العضد . لم أشعر بأي وجع .

دعكت رقبتي بقسوة فتوقفت مع الألم الذي سرى إلى بدني . أسقط في يدي : كنت في الدفرسوار .

قال لنا أقدم أومباشي في السرية : لا تفكروا طويلاً في الراحلين . كل منهم كان مثلنا . له أحزان وأحلام ، أوجاع ومباهج . فلماذا اختارت الشظية يسري وتركتني ؟

تهدجت أنفاسي ، قال بصوت واثق لا أثر فيه للمماحكة : العمر واحد ، والرب واحد .

قلت له بعد يومين من الخدمة : إن أصواتهم تأتي بالليل ، ويلفني الأنين ، ويتلفني الشعور بالعجز .

هز رأسه غير مقتنع بكلامي : المحارب مثلي لا يسمع مثل هذه الأصوات !

وفي ليلة حالكة السواد ضرب الوتد الحديدي قصبة رجله ، فعرج وهو يشير باتهام أكيد : الولد مرسي ابن الكلب . مات ويريد أن يخوفني .

ضمد جرحه ، ورأيت الدم يتسرب من نسيج الشاش في ظلمة الملجأ ، قلت له : أصدقتني ؟!

زغر لي في تحد : عليك بالخرس .

إنها الدفرسوار ، تبدو بيوتها الطينية القليلة كأنها من عهود سحيقة ، لها شكل المكعبات المتساندة ذات الفتحات شحيحة الضوء . كل البيوت تبيع الجاز والسجائر ، ماكينات الحلاقة ، الحلاوة الطحينية ، مثلثات الجبن المطبوخ . لا شيء بالأجل فالخبرة قد علمت الأهالي أن رحيل العساكر أو بقائهن رهين سطر واحد في أمر قتال ، أو إشارة لاسلكية يتم رصدها في جزء من الثانية ، الوحيد الذي كان يبيع بالأجل هو عم عبد السلام . لقد رأى عسر العساكر ، وقرر منذ رأى الشهداء والجرحى أن تكون زكاة تجارته هي تلك المبالغ التي لا يمكنه استردادها . بالقرب من بيته ، الذي هو دكانه كان عساكر من الدفرسوار كلها . يعرفهم بالاسم ، أو الشكل ، أو " الأمارة " .

الدفرسوار بطيخها شديد الحلاوة ، وفي مرات الجمع ، تتكدس

الحبات الضخمة على هيئة أهرام ، منظمة ، تصبغها الخضرة ، ونقرشة الرمال التي تحولت إلى بطعة صفراء دليل النقاوة .

في الدفرسوار ، دفن كل عسكري مؤهله في أقرب حفرة ، وعاش ببدائية الإنسان الأول . استغنى الجميع عن الملاعق الألومنيوم ، وعدنا لحفن الأرز المطهي بالأصابع المضمومة . واستحم أغلبنا في العراء ، مع ساتر لا يحجب شيئاً صنعه ضلع الهايك .

في الدفرسوار كنا نتتبع طيور النورس ، وهي تصدر صوتاً حزيناً ، كأنه نواح متقطع ، ثم يحط بعضها على شجرة النبق ، لتمسح مناقيرها في أوراقها ، وتواصل الطيران بهيكل مائل ، ونظرة مليئة بالشجن ، في اتجاه دائم نحو الشمال ، حيث الأزرق الفسيح .

سرابيـــوم

بمشاعر غامضة ركبت السيارة " الزل " ، وإلى جواري فريد الزواوي ، في المقعد الخلفي ، ومعه رزق ، الصمت يلفنا في طريقنا إلى السرية الطبية بسرابيوم .

يبدو أن الاسم فرعوني ، ولما كانت الظهيرة رحت أتأمل الملامح البائسة ، والوجوه الممصوصة لفلاحين يعملون في الهجير ، أو يجلسون بكسل معتاد على الجسور ..

يزوم محرك السيارة ، فترفرف أرواحنا ، دون أن يرفع فلاح واحد رأسه بالنظر أو التحية . حركة السيارات على المدقات ليل نهار ، وأرتال المجنزرات أفقدت الناس فضولهم .

خلق طيبون ، بنفس الجلاليب الواسعة ، وطاقية الشعر من وبر الخروف . فيما يبدو أن المعارك كانت محتدمة في هذا القطاع ، إذ أن فناطيس البترول بدت محترقة ، إضافة إلى خزانات المياه التي تداعت بعد أن دُكت قوائمها .

إلى سرابيوم ، ورزق يكتم بيسراه سريان الدم ، والجرح المفتوح يختفي وراء أربطة مزقتها أيدي عجلى ، وعينا الزواوي شاخصة إلى البعيد .

همس في أذني : " نفسي في عنب بناتي " !

تظاهرت بأن صوت المحرك قد بدد كلامه في الضجيج ، إلا أنه

لكزني ، وأعادها بعنف . والتقط رزق العبارة : " عنب بناتي " ؟

كان يقلب اللفظين على وجهيهما ، وتكاد الدهشة تطفر من عينين متعبتين : حاضر .

بالتأكيد ، أغارت طائرات العدو على طرق النقل التي كانت تسير عليها قوافل الإمداد ؛ فيها كل العربات المحترقة لم تزل في المنحنيات . والعرق الذي يتقصد على الجبهة ، والوجنتين ، وانحناءات العنق يعيدنا إلى اللحظة . وقع فريد الزواوي على قاعدة المدفع ، ومال المسند ، في لمح البصر رأينا الدم غزيراً . تنبه كل من في الموقع إلى خطورة الجرح، وسرعان ما أعد الصول أورنيك عيادة ، وقعه على الفور رئيس العمليات ، وتطوع رزق للقيام بالمأمورية معي .

عند مدخل القرية أبطأت السيارة ، ولمحنا عربة فاكهة على إحدى النواصي ، وقد أسندها صاحبها على جدار متهدم . زم الزواوي شفتيه ، وأشار بيده إلى الصناديق المرصوصة . قلت أطمأنه : في العودة .

كشف الأربطة عن الجرح العميق ، فأعادها رزق بغضب : أمجنون أنت ! !

رد الزواوي ، أنه يعرف أن الإصابة خطرة ، وقد يروح فيها ، لذلك استعطفنا أن نشتري العنب ، وشدد على أن يكون العنب بناتي !

خبطت بيدي على سقف الكابينة ، أوقف مختار السائق السيارة متسائلاً : أيه ؟ ؟

قلت : دقيقة واحدة . قفزت إلى الأرض المتربة ، ذهبت إلى بائع الفاكهة . قبل أن أسأله عن الثمن ، راح ينفض العناقيد بمشنة من الخوص ، والذباب الذي كان راقداً في هدوء ، هاج ولف ، ودار ، ثم حط من جديد على الصناديق .

رحت أتحسس ما معي من نقود : نصف كيلو .

سمعني رزق ، فقذف لي قطعة نقود فضية ، سمعت رنينها ، وهي ترتطم بالأرض : اشتر كيلو .

أكمل الزواوي : عنب بناتي .

من عمق سحيق ، رأيت تلك الحادثة بتفاصيلها الدقيقة ، كنت

طفلاً أرتعش من الحمى ، وأبكي من الخوف ، أقول لأمي : أريد عنباً .

إنها تداعيات الموقف الصعب . لكن المدق الجيري ، وخلفه الطريق الزجزاج أعادني إلى سرابيوم . خفت أن أكون قد تأخرت ، عدوت إلى أقرب زير ، وغسلت العناقيد ، ثم مددت يدي لرزق الذي تناول القرطاس المبلول . صعدت بصعوبة لأن الشمس كانت في عيني ، تبخ نارها . ولم يكن معي أي منديل فمسحت عرقي الغزير في أكمام السترة .

أحسست أن جسده يتصلب ، ورغم أنينه الخافت ، فقد امتدت يده ، تتناول حبات العنب .

زفر ، والعربة تتخبط في مطبات الطريق ، وكانت الحفر مملوءة بالأعشاب الجافة الصفراء . ونحن نواصل رحلتنا القسرية إلى السرية الطبية التي لاحت لنا على بعد ، مهدمة هي الأخرى ، وبين أشجار وارفة . عرفناها بالعلم الأبيض الذي يرفرف مع حركة الهواء ، تطويه الريح فيبدو الهلال قطعاً حمراء صغيرة من دماء الجرحى والشهداء .

نزلنا ونحن نضغط الأربطة بقوة ، وقابلنا طبيب شاب في حجرة الاستقبال ، أخذ الأورنيك ، وسألنا عن فصيلة دم الزواوي الذي يبدو أن الغيبوبة أخذته للحظة ، فقد أجاب على الطبيب بنفاذ صبر : عـ . . نـ . . ب . . بناتي .

أسقط في يدنا ، واضطررنا إلى حمله ، ووضعه على النقالة ذات العجل . دفن المصاب وجهه في ملاءة بيضاء وضعوها على جسده ، وطلب من رزق أن يحتفظ بقرطاس العنب .

كانت رائحة البنج النفاذة تصل إلى أنوفنا ، وتدفعنا إلى القيء ، قال الطبيب بهدوء بعد أن كشف على الزواوي :

عملية بسيطة . ابقوا في الخارج . خمسة عشر غرزة تقريباً .

أخذنا مختار إلى " غرزة " بجوار ترعة تسبح فيها أسراب البط ، أخرج من عبه حق المعسل ، ودفعه للعجوز ، الذي جاء له بثلاثة أكواب من الشاي المعتبر ، ونرجيلة طرفها من الغاب ، وراح يحرك الفحم بالماشة . شاركنا الرجل جلستنا : خير . . يا شباب .

قال مختار بحزن حاول إخفاؤه : زميلنا الزواوي . . جرحه صعب .

خبط بيده على المنضد الخوص : ياه . . السرية الطبية شافت جرحى وشهداء بالآلاف .لا

ضحك ، كأنه يطرد خاطراً شريراً : سرابيوم يا أولاد أكلت الجعضيض !

هبت ذرات الرمال ، وراحت الشمس تغوص رويداً رويداً باتجاه الغرب ، حدقت في الوجه العجوز ، وتجاعيد السنين، والغضون العميقة .

سألته : ماذا تعني سرابيوم ؟

تأملني لحظات قبل أن يربت على كتفي : يا ولدي نحن فراعنة .

جائز فيه عرق عربي ، وعرق نصراني ، وعرق عثمانلي . لكن البذرة فرعوني . اتسعت ضحكته وهو يفكك الكلمة : سراب . . يوم .

شهق وهو يغمز لي ، وللأصحاب : سراب العمر كله . لكنهم يحرّفون !

صيـد العصـــاري

يفتح العساكر أعينهم كل صباح على ذؤوبات الأشجار تخفي مساحات واسعة من الأزرق الفسيح ، شقشقة العصافير ، وهي تغزل من الضوء لحناً فرحاً . صوت الشيخ محمد رفعت يأتي واهناً من داخل ملجأ قادة السرية . ننصت لتغريد كناري وحيد يمضي باتجاه الغرب ، أما الشرق الذي يحفه طريق المعاهدة الأسفلتي فهناك القناة ذات الزرقة القانية ، يتدرج اللون كلما أوغلت في العمق .

يتنهد العساكر بحرارة مع طلوع صبح جديد ، والكل يقول في سره : " يا فتاح يا عليم " . لا أحد يمكنه أن يكمل الجملة الأثيرة : "يا رزاق يا كريم " فلا رزق في الجيش ولا يحزنون .

وطأة الحر الخانق لم تبدأ بعد ، كل شيء يكون في صفاء عبر الساعات الأولى لكأن الكون يتشكل من جديد . حتى البيادات الثقيلة ما زالت تحت أضلع الصاج ، ويداخلها الجوارب التي أثقلها الرمل الناعم خلال يوم فات .

في الصعود إلى نقطة مراقبة السرية تبدو السيارات صغيرة كعلب كبريت تتحرك ببطء ، والدخان يصعد من الشكمانات الصفيحية .

ما أبهج أن يغسل الإنسان وجهه بماء جار . هذا ما دار في ذهن العسكري ياسين ، ونفذه على الفور .

رأيته بنفسي يندفع إلى التبة ، ويتدحرج بصعوبة هابطاً نحو الأسفلت . لم تعترضه سوى أشجار قزمية ، وحشائش برية نبتت كيفما

اتفق ، لكنه تفادى كل العوائق . قطع الطريق الأسفلتي ، وانحدر إلى صفحة القناة . كنت أرقبه ، وقد صار نقطة من الكاكي تتحرك يمنة ويسرة ثم تستقر على الشاطئ .

كأني به يستحضر وجوه كل من غابوا ، على البعد ، هناك ، وطواهم النسيان . ثمة طيور بحرية تسقط على صفحة الماء ، وتلونها بالأبيض .

أقعى بالقرب من المياه التي طالما شاهدها على البعد . هي له الآن . يمكنه أن يغسل وجهه بفيضه الباذخ .

لكن ياسين غمر رأسه ، وراح ينفضه باستمتاع غريب .أخرجت منديلي الكاكي ولوّحت به ، لم يرني . جاء حامد ولوح له بذراعيه ، التفت صدفة فرأى تلويحنا . رفع ذراعه ، ثم حفن بكفيه بعض الماء وراح يرشه باتجاهنا . كان يفصلنا حوالي كيلو مترين . لكن طراوة الماء ، ونداوة الصباح أشعرتنا بالبلل .

حين عاد العسكري ياسين مهرولاً ، كنا قد ارتدينا الزي كاملاً ، وحلقنا ذقوننا ، وكان شعره المبلل يشعرنا بالرغبة في أن نغامر مثله ، ونفعل فعلته .

في فترة الراحة بعد تمام طابور السرية اتفقنا أن نصطاد سمكاً من القناة بأي وسيلة . نجح رزق في أن يحصل على تصريح ثمان ساعات لشراء بطارية سائلة لسيارة الحملة .

عاد ، وقد أخفى عدة قصبات من الغاب ، وفي كيس داخل السترة كانت قطع الرصاص ، والهلب المسنون ، وخيوط الغزل المتينة .

كان لا بد أن نخفي الأمر عن الصول درويش ، ففور راحة ما بعد الغذاء أنزلنا ضلع الهايك المموه ، وبدأنا في إعداد أكثر من سنارة .

كل مرة نثبت الرصاص ينزلق نحو الهلب ، جاء الزواوي وكان جرحه ما يزال طرياً لم يندمل ، عض بضروسه قطعة الرصاص في مكانها المناسب فأمسكت بالغزل .

أخفينا جسم الجريمة بمحاذاة أضلع الصاج ، وأعدنا كشف فم الملجأ ، وكان التجويف لا يسعه فرحنا الهائل بيوم الصيد.

اتفقنا أن نشوي الأسماك التي نصطادها ، ونجعلها " عزومة " لا تُنسى ، ورحنا نحلم بالبوري والقاروص والبياض .

نستر فرحتنا بالصمت على غير العادة ، ونقوم كل لحظة لننشر ثياب غسلناها ، وعلقناها على سفح التبة القريب ، ملأت رئتي بهواء عليل شعرت أنه محمل بيود القناة ، كانت ثمة طائرة ورقية تترنح خلفنا ، في الجزء المدني الذي لم يعد أهله من التهجير بعد . تأملنا الشمس وهي تنحدر في لطف وهدوء لا طاقة لنا به .

حين لامس عامود التتشين وتد حفرة الذخيرة ، تسللنا واحداً واحداً ، بكل حذر ، وعانينا من الدحرجة اللعينة التي تركنا لها أجسادنا ، حتى لا نصاب بسوء .

في أسفل التبة ، تلمسنا الجروح والرضوض ، وتسلخات المرفقين ، لم تكن هناك خسائر يؤبه لها .

صرنا في مواجهة الأزرق الجميل ، ماء له رونق بهي ، كأنه يشهق ممتناً بحضورنا . أخذنا وضع القرفصاء ، وضعنا " الطُعم " ، ثم دلينا السنارات .

هب هواء منعش غسل أحزاننا ، فسرت في أبداننا سعادة غامرة ، وطفحت وجوهنا بالبشر . كانت المياه فاتنة ، تمس أرواحنا بنغمات ساحرة .

اصطاد ياسين ثلاث سمكات ، وحامد أبو طويلة سمكتين ، بصعوبة بالغة اصطدت سمكة لا بأس بها ، ورحت أتحسس الزعانف ، نجح رزق في اصطياد سبع سمكات ، فقد كان يخمش جسد السمكة بلهب كبيراً اصطفاه لنفسه . قلنا " وجبة " لا بأس بها . لكن الرزق يحب الخفية . وأردنا المزيد .

في لحظة صادمة ، هبط جنود المشاة بالسرية الثالثة ، أشاروا لنا بالابتعاد . نفذنا الأمر باحتجاج مكتوم .

قذف صول محتقن الوجه بإصبعي ديناميت ، سمعنا الانفجار المكتوم ، وأصاب رشاش الماء وجوهنا ، ورأينا السمك يطفو ممزقاً على سطح الماء الذي اصطبغ بالأحمر .

بدأوا في جمع السمك المغدور ، وانصرفوا بنفس السرعة المباغتة . ألجمتنا المفاجأة . لم ينبس أحدنا بحرف .

قمنا من المكان نجر أرجلنا ، وقد شعرنا بالأسى يلفنا حين وصلنا إلى أرض السرية ، لم تكن معنا سنارات ، ولا حتى السمك الذي اصطدناه . ولما عضنا الجوع ، أخرجنا الجراية نأكلها بغل لا يمكن وصفه ، بدون أي غموس !!

فهرست

صدر للكاتب

❖ الشعر :-

- الخيول، مديرية الثقافة بدمـــياط، سبتمبر ١٩٨٢ .
- ندهة من ريحة زمان، الهيئة العـامة للكتاب، ١٩٩١ .
- ريحة الحنة ، مديرية الثقافة بدمـياط ، ١٩٩٨.
- نتهجى الوطن في النور، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، أبريل ٢٠٠٠ .
- سجادة الروح، إقليم شرق الدلتا الثقافي، مـايو ٢٠٠٠ .

❖ الرواية :-

- رجال وشظايا ، الهيئة العـــامة للكتاب ، ١٩٩٠ .
- ظل الحجرة ، مركز الحضـارة العربية ، أغسطس ٢٠٠١ .

❖ القصة القصيرة :-

- خوذة ونورس وحيد ، دار سما ، أبريل ٢٠٠١ .
- كيف يحارب الجندي بلا خوذة ؟ ، المجلس الأعلى للثقافة ، سبتمبر ٢٠٠١ .
- أرجوحة ، مركز الحضارة العربية ، نوفمـبر ٢٠٠١ .
- انتصاف ليل مدينة ، اتحاد الكتاب ، عدد ٤٦ ، يـــونيو ٢٠٠٢ .

❖ دراسات ومراجعات :-

- انكسارات القلب الأخضر .مختارات الروائي عبد العزيز مشري .
- سلسلة آفاق عربية ، العدد ٥٦ ، مايو ٢٠٠٣.

❖ أدب الطفل :

- الحكيم وحماره ، الهيئة العامة لقصور الثقـافة ، ١٩٩٩ .
- . بستان فنون ، كتاب قطر الندى ، العدد١٣٠ ، يوليو ٢٠٠٦ .

❖ حوارات صحفية :-

- مواجهات ، مديرية الثقافة بدمياط ، مـارس ٢٠٠٠ .
- تقاطعات ثقافية ، مديرية الثقافة بدمياط ،مايو ٢٠٠١ .

❖ تحت الطبع :

- صندل أحمر . مجموعة قصصية .
- دفتر أحوال . مجموعة قصصية .
- الزلنطحي . مجموعة قصصية .
- وميض تلك الجبهة . روايـــــة .
- هذا كل ما أشتهي . ديوان شعر .
- انا أحب الفول النابت . تأملات ثقافية واجتماعية .

البريد الإلكتروني
E _ mail :

Samir_feel@yahoo.cccccom

Samir_feel@hotmail.com

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٧/٧٣٣٦